الدكتور محمد أديب الصالح

اليهود

في القرآن والسنة

"بعض من خلائقهم"

دراسة للنصوص، في محاولة لاستلهام العبر والدروس

القسم الأول



دار الهدى للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الهدى للنشر والتوزيع
الرياض - شارع طارق بن زياد
هاتف ٤١٢١٩٧٤ - فاكس ٤٦٢١٤٨٠

اليهود

في القرآن والسنة

"بعض من خلائقهم"

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله
وَسَلَامٌ على عباده الذين اصطفى
{النمل آية ٥٩}

ربنا تقبل منَّا
إنك أنت السميع العليم
{البقرة آية ١٢٧}

توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين. وبعد :

فالناظر في الكتاب والسنة وما استنبطه أئمة الهدى منهما ، يدرك ـ وهو يتبصر فيما ورد في شأن أعداء الله ، وإعطاء الأحكام والقواعد التي يجب أن تضبط العلاقة بين المسلمين وغيرهم ـ أن الإسلام لا يريد لأتباعه وهم يبنون الحياة على منهج سويٍّ يشمل الميادين كلها ، ويشيدون صروح الحضارة المثلى بنظرات تتجاوز الحاضر الى ما وراءه .. لا يريد لهم أن تكون أحكامهم مرتجلةً يعوزها الوعي والتبصُّر ، أو قائمةً على ردود الأفعال والتأثر الآني الذي يكون الإنسان فيه منفعلاً وكفى ، لا فعَّالاً مؤثراً في التخطيط والتنفيذ . بل يريد لهم أن تأتي الأحكام نتيجة دراسةٍ وتمحيص ، ومعرفة صحيحة بالواقع وبطبيعة الأرض التي يتحركون عليها والمناخ الذي يعملون فيه ، ذاكرين أنهم ـ بحمد الله ـ أصحاب رسالة هادية يريدون أداءها . يصحب ذلك تقويم بميزان الحق الذي نزل به الكتاب ، وأوضحت أبعاده وفصلت مجمله السنة المطهرة ، وإدراك لترتيب النتائج على المقدمات والمسبَّبات على الأسباب ، كما هي سنة الله فيما خلق وقدَّر .. كل أولئك دونما إغفال للمصلحة التي تعود على الإسلام وأهله بالخير والقوة والمنعة ، علماً بأن المصالح الحقيقية للمسلمين ، هي في خدمة الإنسان ، ولا تعارض بينها وبين الحق ، لأنها ـ دائماً ـ من الحق وإليه .

أقول هذا بين يدي الحديث عن خـلائق اليهود في القرآن والسنة ؛ لأن مما يستوقف الباحـث في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصـلاة والسلام ، وسيرته المطهرة عمـوماً ، أنه كـانت هنالـك عناية بـالكشف عن حقيقـة اليهود في طباعهـم وخصالهم وعنصريتهم ، ودعـاواهم الكـاذبة وبهتانهم ومكـرهم ، والقيم التي تحكمهم ، سواء أكان في عـلاقتهم بربهم وأنبيائهم ورسلهم ، أم كان في علاقتهم بـالناس الآخرين من غير أتباع ملتهم ـ التـي طرأ عليها ما طرأ من التحريف والتبديل ـ .

وقد كان ذلك على مساحة واسعـة تُعين على كشف خبايا هؤلاء الأناسيّ أعداء الله والإنسـان ، وأبعاد سلـوكهم وتصرفاتهم مـاذا وراءها ، مما يحتاج المسلمون لمعرفته وهم على ثغور المواجهة للتحديات في السلم والحرب .

فالقرآن ــ مثلاً ـ لم يعرض لهذه الأمـور في مجموعة قليلة مـن النصوص ، ولكنه جاء بفيض زاخر مبارك ، يتنـاول الكليات والجزئيات والوقائع ، حتى بلغ الحديث عن بني إسرائيل أن كان من أكثر القضايا نصوصاً بعد العقائد، كل ذلـك بوضوحٍ لا تشوبـه شائبة لبـس أو غموض، وجزمٍ قاطـع لا يقبل الاحتمال . وعلى سبيل المثال نقرأ لتبين الوضوح والجزم اللذين نلمح إليهما ما جاء في سورة النساء بشأن اليهود بدءاً من الآية الثالثة والخمسين بعد المائة ؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يسألـك أهل الكتـاب أن تنزل عليهـم كتابـاً من السماء ، فقـد سألـوا موسـى أكبر من ذلك فقالـوا أرنا الله جهرة فـأخذتهم الصاعقة بظلمهـم ثم اتخذوا العجل مـن بعد ما جـاءتهم البينات ، فعفونا عـن ذلك وآتينا مـوسى سلطاناً مبيناً . ورفعنـا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنـا لهم ادخلوا الباب سجَّداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فبما نقضهم ميثاقهم

وكفرهم بآيـات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنـا غلفٌ بل طبع الله عليها بكفـرهم فلا يؤمنـون إلا قليلاً . وبكفرهـم وقولهم على مريم بهتـاناً عظيماً ، وقولهم إنـا قتلنا المسيح عيسـى بن مريـم رسول الله ، وما قتلـوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً .﴾ إلى أن يقول جـل شأنه في الآيتين الستين بعد المائة والحادية والستين بعد المائة **﴿فبظلم من الـذين هادوا حرمنـا عليهم طيّبات أحلّت لهم ، وبصـدّهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾.**

هكذا جاءت هذه الآيات على مظاهـر انحرافهم عن العقيدة الصحيحة وشيء من دعاواهـم الكاذبة ، وما كـان ديدنَهم من قتل الأنبيـاء بغير حق ، كما جاءت على ذكـر افترائهم على مـريم ، وزعمهـم أنهم قتلوا عيسـى عليه السلام ؛ والواقع أنهم ما قتلوه ومـا صلبوه ولكن شبِّه لهم ، وكشفت الآيتان الأخيرتـان عن أن الله حـرَّم على اليهود طيّبـات أحلّـت لهم ، وذلك بسبـب ظلمهم وصـدّهم عن سبيـل الله كثيراً ، وأخذهم الـربا وقد حُـرِّم عليهم ، وأكلهم أمـوال الناس بـالباطل ، وختمـت الآية الحادية والستـون بالـوعيد الشديـد بالعذاب الأليـم في الآخرة ، وذلك بسبـب ما اجترحوه مـن الكفر الظالم البـواح الذي ينقـض دعاواهم واحـدة واحدة ، والـذي انعكس على تفكيرهم وسلوكهم حتى كانت تلك الصور المقيتة والعياذ بالله . فقال تعالى: **﴿ وأعتدنا للكافريـن منهم عذاباً أليماً ﴾** و"من " هنـا في " منهم " بيـانية وليست للتبعيض ، إذ كلهم كذلك إلا مـن شرح الله صدره للإسلام ، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وآخرين وهم قلة .

ولما قال اليهود للنبي ﷺ : بمن نؤمن ؟ أجابهم بما دعا إليه قول الله تعالى في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾ فلما ذكر عيسى عليه السلام قالوا : لا نعلم ديناً شراً من دينكم ، فنزل قول الله تعالى في سورة المائدة وذلك فى الآية التاسعة والخمسين : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾ ثم قال جل شأنه في كشف عن جوانب من سمات اليهود ونقائصهم وما عوقبوا به من اللعن والغضب والمسخ : ﴿ **قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل . وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ .

أرأيت إلى هذه الدقة في تفصيل ذلك البعض من سماتهم ونقائصهم على صعيدي العقيدة والسلوك ، وأن أحبارهم والغون في الضلالة ، لاينهونهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، وهم في صنيعهم هذا مستحقون للمؤاخذة ؟ لبئس ما كانو يصنعون .

وأود الإشارة هنا إلى أن هذه الآيات الكريمات التي أوردتها هنا ، وأخواتها في المواطن الأُخَر من كتاب الله عز وجل : مما سوف نأتي على بيان مدلولاتها ـ إن شاء الله ـ بالقدر الذي تدعو إليه الحاجة ، تجلية للموضوع قدر المستطاع ، ولكني أوردتها هنا لتكون أنموذجاً للوضوح في الكلام على بني

إسرائيل ، والجزم بما أطلق عليهم الكتاب الكريم من أحكام ؛ كيما يكون المسلمون على بينة من أمرهم ويدركوا الحقيقة التي يحول إدراكها بينهم وبين الغفلة والقعود عن الإعداد ، ثم يحملوها واضحة جلية إلى الناس .

وإذا كان الأمر كذلك : فالحقيقة التي لا معدى عنها ـ والله أعلم ـ والتي لم تزدها التجارب الآيسة إلا رسوخاً ، هي : أن الخطوة الأولى على طريق المواجهة بين أمتنا وبين اليهود ومن على شاكلتهم : الإدراك الواعي لما جاء في القرآن الكريم وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وسيرته المطهرة عن خلائقهم ، وطبيعة الصراع بيننا وبينهم على الصعيدين العقدي والحضاري ، وكم في تاريخنا معهم بدءاً من عصر الرسالة ، وحتى يوم الناس هذا ، من وقائع تؤكد هذه الحقيقة التي يتجاهلها الكثيرون ، وحصدنا من جهلها أو تجاهلها المرَّ والعلقم !!!

وعلى هدي من هذه المقولة ، كانت هذه الصفحات التي وِلدت أحاديث ، قُدّمت في إذاعة القرآن الكريم بالرياض ، وبعدها في البرنامج العام ، وبدأ ذلك عام ثلاث وأربعمائة وألف للهجرة .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الذي تركنا على المحجة البيضاء ، **في الموالاة والمعاداة**، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .



التحايل على أحكام الله والصد عن سبيله

ـ ١ ـ

الكلام على اليهود كشفاً عن سماتهم في الضلال والمكر ومحاربة الله ورسله والعداء للإنسان ، والسلوك الذي يتجافى مع الحق والاستقامة ، **قد أخذ مساحة واسعة مباركة في كتاب الله وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام** ، وكان الكلام ـ كما أسلفت من قبل ـ شديد الوضوح لا تشوبه شائبة لبس أو غموض ، جازماً لا يقبل أيَّ لون من ألوان الاحتمال . وقد ضربت من قريب مثالاً للوضوح والجزم بآيات من سورتي النساء والمائدة .

ونحن الآن على موعد مع بعض النماذج من السنة المطهرة ؛ حيث كان النبي ﷺ يقود المجتمع الوليد بالإسلام ، وهو على ذُكر تام من عدوان اليهود على الحق ، وعبثهم بالأحكام التي أنزلها الله على موسى عليه السلام في التوراة، أخرج مسلم وأبو داود عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : (مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا

عليه الحدَّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأُمر به فرُجم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سمَّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ يقولون : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد ، فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ في الكفار كلُّها . هذه إحدى روايات مسلم وأخرجه البخاري عن ابن عمر، وفي رواية أبي داود مثل ذلك وقال في آخرها : فأنزل الله عز وجل﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ إلى قوله ـ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ في اليهود إلى قوله: ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ في اليهود ـ إلى قوله: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ قال : هي للكفار كلُّها يعني هذه الآية .

وهذه الآيات المومى إليها من سورة ، المائدة بدءاً من الآية الحادية والأربعين ، وهي قول الله جل شأنه : ﴿ **يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سمَّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك ..**﴾ الآية . والتحميم : تسويد الوجه ، من الحميم جمع حممة وهي الفحمة . وأخرج

الحديث النسائي وابن ماجه بنحوه .

هكذا : مراعاة لذوي الشرف والمكانة فيهم، بدَّلوا حكم الله وحكموا في هذه الجريمة بغير ما أنـزل الله ؛ فبدلاً عن الرجم اخترعوا مـن عند أنفسهم التحميم وهـو تسويـد وجه مـرتكب الجريمـة بالفحـم . ولذلـك جاءت الآيات تعلـن بصراحة ووضـوح أن من لم يحكـم بما أنزل الله فـأولئك هـم الكافرون ، فـأولئك هم الظالمون ، فـأولئك هم الفاسقـون . ولسوف تسعَّر بهم جهنم يـوم القيامـة عندما يحشرون في زمـرة من قـال الله فيهم : ﴿ **يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه فأما الذيـن اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .

وفي رواية أخرى لمسلـم عن نافع أن عبدالله بـن عمر أخبره «أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهوديـة قد زنيا ، فـانطلق رسول الله ﷺ حتـى جاء يهود ، قال : ما تجدون في التـوراة على من زنى؟ قالـوا : نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويُطاف بهما ، قال : فـأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين ، فجاؤوا بها فقرأوها ، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على الرجم ، وقرأ مـا بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سـلام ـ وهو مع رسول الله ﷺ ـ : مُره فليرفع يده ، فإذا تحتهـا آية الرجم ، فأمرب هما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبدالله بن عمر : فكنـت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه » . هكذا بلغ بهم الاستهتار بـالدين ، أن يضع الشاب الذي يقرأ ، يده على آية الرجم، حتى كشف الحيلة عبدالله بن سلام رضي الله عنه .

وفي خطوة أخرى ـــ بعد أن رأينا احتيالهم مـراعاة للطبقية ـ نتجـه إلى ما كشفت السنّة المطهّرة عن احتيالهم للهـروب من حكم الله طمعاً في الكسب ولو كـان حراماً ، وكيـف أنَّ رسو ل الله ﷺ ذلـك دعا عليهم ولعنهـم من

أجل ذلك . وفي هذا الموقف من رسول الله ﷺ ما فيه من التنبيه على عدم الوقوع فيما وقع فيه اليهود من العبث بالدين واللجوء إلى التحايل على أحكام الشريعة طلباً للدنيا ورغبة عن الآخرة . فقد أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة : «إن الله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام . فقيل : يارسول الله ، أرأيت شحوم الميتة ؟ فإنها تُطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا ، هو حرام » ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : « قاتل الله اليهود ، إن الله لما حرَّم عليهم شحومها أجملوه ، ثم باعوه ، فأكلوا ثمنه » وفي رواية للبخاري عن ابن عباس «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها ». وعند أبي داود في رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال : «رأيت رسول الله ﷺ جالساً عند الركن فرفع بصره إلى السماء فضحك وقال: لعن الله اليهود ـ ثلاثاً ـ إن الله حرَّم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله عزو جل إذا حرَّم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » . أخرجه في باب (ثمن الخمر والميتة) من كتاب (الإجارة) وإسناده صحيح . ومعنى جملوها : أذابوها ، حتى تصير وَدَكاً فيزول عنها اسم الشحم. والودك ما يتحلَّب من اللحم والشحم من الدسم . تقول : جملت الشحم وأجملته : إذا أذبته ، وجَمَلَ أفصح من أجمل .

هكذا كان الاحتيال على الحكم الشرعي بالقيام بعملية إذابة الشحم حتى يتغيَّر اسمه ولكن حقيقة المحرَّم واحدة . ولذلك ندَّدعليه الصلاة والسلام بهم فقال : « لعن الله اليهود ـ أو قاتل الله اليهود ـ إن الله لما حرَّم شحومها ـ أي الميتة ـ أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

وفي استنباط للأحكام من هذا الحديث قال الإمام الخطابي المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، وصاحب كتاب «معالم السنن » الذي شرح فيه سنن أبي داود ، قال رحمه الله : وفي هذا بيان بطلان كل حيلة يحتال بها للتوصل إلى محرَّم ، وأنه لا يتغير حكمه بتغيير هيئته وتبديل اسمه .

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن في تنديد رسول الله باليهود بسبب احتيالهم تنبيهاً للمسلمين أن لا يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن فلاناً باع خمراً فقال : قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله اليهود ، حرّمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها » .

رزقنا الله الاستقامة في القول والعمل ، وباعد بيننا وبين الوقوع في تقليد من غضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً . وهدانا للانتفاع بهدي النبي ﷺ في شأن احتيالهم على أحكام الله ، وتلاعبهم بمدلولات النصوص والحمد لله رب العالمين .



التحايل على أحكام الله
والصد عن سبيله

ـ ٢ ـ

سعدنا من قريب باصطحاب نماذج من السنة المطهرة ، وقفتنا فيها النصوص على مدى الوضوح في الكلام على خصال اليهود ، والجزم الذي لايقبل الاحتمال في الحكم على انحرافهم بما يصنعون . فمن احتيال على نصوص التوارة بشأن حد الرجم للزاني إرضاء لطبقة الأشراف من الناس ، إلى احتيال على تحريم الشحوم حيث كانت الحيلة تغيير اسم تلك الشحوم بالإذابة إذ يصبح اسمها بعد الإذابة ودكاً . ومما جاء في شأن القضية الأولى ما روى مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : ما تجدون في التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين ، فجاؤوا بها فقرؤوها ، حتى إذا مروا بآية الرجم ، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ مابين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام ، وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبدالله بن عمر : فكنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه .

هذا وقد جاء في رواية لأحمد في مسنده ، تصريح باسم القارىء الذي

جيء به ليقرأ في التوراة لمعرفة حكم الله في تلك الجريمة ؛ فقد أخرج رحمه الله بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما « أن اليهود أتـوا النبي ﷺ برجل وامرأة منهم قـد زنيا ، فقال : مـا تجدون في كتابكـم ؟ فقالوا : نسخِّـم وجوههما ، ويخزيان ، قـال : كذبتـم إن فيها الـرجم ، فـأتوا بـالتوراة فـاتلوهـا إن كنتم صادقين . فجاؤوا بـالتوراة وجاؤوا بقارىء لهم أعـور يقال له ابن صـوريا ، فقرأ ، حتى إذا انتهى إلى موضع منها، وضع يده عليه ، فقيل له: ارفع يدك ، فرفع يده ، فـإذا هي تلوح ، فقال أو قالوا : يا محمد إن فيهـا الرجم ، ولكنا كنا نتكـاتمه بيننا ، فأمر بهما رسـول الله ﷺ فرجما ، قال : فلقد رأيتـه يجانىء عنها يقيها الحجارة بنفسه » .

السُّخام : سواد القدر ، وتسخيم الوجه تسويده بالسُّخام .

ولقد يتساءل متسائل عـن كون النبي ﷺ قد علـم أن الموجود في التوارة الرجم . ﺑِأكذبهم حينما قالوا غير ذلك ، فـالمعروف أنهم قد حرَّفوا وبدَّلوا كما دلت على ذلك نصوص القـرآن الكريم من مثل قولـه تعالى في الآية الخامسة والسبعين من سورة البقرة خطاباً للمؤمنين : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كـان فريـق منهـم يسمعون كـلام الله ثم يحرفـونـه من بعـد مـا عقلوه وهـم يعلمون**﴾ وقولـه جل شأنه في الآيـة السادسة والأربعين من سـورة النسا ء : ﴿**من الـذين هـادوا يحرفون الكلـم عن مـواضعه ويقـولون سمعنـا وعصينا واسمع غير مسمـع وراعنا ليـاً بألسنتهـم وطعناً في الـدين ، ولـو أنهم قالـوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾ وقوله سبحانه في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة : والمعنيون هم اليـهود : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلـم عن مـواضعه ونسـوا حظاً ممـا ذكروا بـه، ولا تزال تطلـع على خائنـة منهم إلا قليلاً منهـم فاعف عنهـم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾

ونقرأ في الآية الخامسة عشرة من السورة نفسها قول من لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ .

ونحن واجدون عند العلماء الجواب عن التساؤل المومى إليه ، قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على ما جاء في الحديث من قوله ﷺ : (ما تجدون في التوراة) قال العلماء : (هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم ، وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم ، ولعله ﷺ قد أوحي إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما غيروا أشياء ، أو أنه أخبره بذلك من أسلم منهم ، ولذلك لم يخف ذلك عليه حين كتموه) .

هذا: وقد كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يعتبر المسلمون بما حلَّ باليهود من غضب الله بسبب تحايلهم على الأحكام وعملهم الدائب على التفلت منها ، فكان عليه الصلاة والسلام لايني يبين لأمته أن الوقوع فيما وقع فيه اليهود شر مستطير ، واتجاه يتنافى مع الالتزام بشرعة الإسلام ومنهجه في الحياة ، بل هو سبب الهلاك والعياذ بالله ؛ فعن عائشة رضي الله عنها « أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا ومن يجترىء عليه إلا أسامة ابن زيد حبُّ رسول الله ﷺ ؟ فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة ابن زيد ، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال له أسامة : استغفر لي يارسول الله ، فلما كان العشي قام رسول الله فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا

عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجتْ، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ» رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ لمسلم.

وفي رواية للبخاري «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» بدل (لقطعت يدها) والمرأة هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية عمها أبو سلمة رضي الله عنه.

وبعد: فإن عتب رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد الحب بن الحب لأنه يشفع في حد من حدود الله، هو بمثابة إعلان في تاريخ الإنسانية كلها، يبيِّن أوضح بيان أن الحق في الإسلام هو الذي يجب أن يعلو، وأن الكل متساوون أمام شريعة الله عزوجل، فالرب واحد والشريعة لعباده من عنده سبحانه. ولقد أعقب هذا العتاب، كشفه عليه الصلاة والسلام عن سنة من سنن الله في خلقه؛ وهي أن العبث بدين الله والانحراف عن شريعته بعدم تطبيقها على الجميع، مدعاة للهلاك والدمار ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: «فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، والمقصود هنا أهل الكتاب وبخاصة اليهود وقد رأينا محاولتهم التفلت من إقامة حد الرجم بكتمان ما جاء صريحاً عندهم في التوراة.

وبعد هذه الرحلة مع ذلك النموذج المبارك من السنة، الذي وقَفَنا على لون من ألوان الاحتيال على الأحكام عند اليهود، نعود إلى النموذج الآخر وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ - كما سلف - من أنهم عمدوا إلى إذابة الشحم

المحرَّم عليهم بيعه فباعوه وأكلوا ثمنه ، بحجة أن اسمه قد تغيَّر فأصبح (الودَك) ذلكم قوله ﷺ فيما روى الشيخان وأصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما : (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها) واللفظ للبخاري .

عمدت إلى التذكير بهذا الحديث الذي يحمل أعمق الدلالة على الانحراف المتأصل في نفس اليهودي ، وكيف أنه يدعي الإيمان بالتوراة ، وفي الوقت نفسه لا يألو جهداً ـ وهو يدور مع المال حيث دار ـ في أن يزوغ عن حكم الله ليحصل على الربح من أي طريق ولو كانت سحتاً والعياذ بالله ... أقول : عمدت إلى التذكير مرة أخرى بهذا الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، كيما أورد رواية أخرى عن عبدالله بن عمر تحمل لوناً آخر من ألوان الوعيد لأولئك الأناسي على ما يرتكبون من مأثم وضلالات في هذه السبيل .

فعن عبدالواحد البُناني قال : كنت مع ابن عمر رحمه الله فجاءه رجل فقال : يا أبا عبدالرحمن إني أشتري هذه الحيطان يكون فيها العنب ولا نستطيع أن نبيعها كلها عنباً حتى نعصره ، فقال: عن ثمن الخمر تسألني ؟ سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ . كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إلى السماء ثم أكبَّ ونكت في الأرض وقال: الويل لبني إسرائيل، فقال له عمر : يارسول الله لقد أفزعنا قولك : الويل لبني إسرائيل فقال : ليس عليكم من ذلك بأس ، إنهم لما حرمت عليهم الشحوم ، فيذيبونه فيبيعونه فيأكلون ثمنه ، كذلك ثمن الخمر عليكم حرام ، رواه أحمد والطبراني في الكبير . قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح خلا عبدالواحد وقد وثقه ابن حبان ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .



التحايل على أحكام الله
والصد عن سبيله
ـ ٣ ـ

في متابعة لما يراه الناظر في نصوص الكتاب والسنة من وفرة في الكلام على أهل الكتاب بعامة وعلى اليهود بخاصة في خصالهم وسلوكهم ونهجهم في الموالاة والمعاداة واحتيالهم على أحكام الدين للتفلُّت منها ، ومظاهرتهم الباطل على الحق حتى مع الأنبياء والرسل ، وعنصريتهم البغيضة التي تتحرك في إطار من الدعاوى الباطلة .. أود الإشارة ـ في متابعة لهذه الحقيقة إلى أن الوقائع من بدء تاريخ الإسلام ـ في علاقتهم بأمتنا ـ حتى عصرنا الحاضر ، جاءت مؤيدة التأييد كله لما جاء في الكتاب والسنة وسيرة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على وجه العموم .

وبصرف النظر عن هذه المؤيدات الناطقة التي تتجدد يوماً بعد يوم ، والتي تدل ـ فيما تدل ـ على أن الكلام الذي قيل بشأنهم هو الصدق كله ، لأنه وحي من عند الله يوحى ... بصرف النظر عن هذه المؤيدات فإن مقتضى التصديق بما جاء في الكتاب الكريم وفي السنة المطهرة ، أن يكون المسلمون على وضوح الرؤية في شأن غير المسلمين ـ واليهود منهم بخاصة ـ كيما تكون العلاقة متصوراً فيها تلك الحقائق التي نلمح إليها ، مما جاء في أولئك الأناسي الذين تعاني أمتنا منهم وممن يلوذ بهم ويسير في فلكهم ما تعاني ، وأن تكون تلك العلاقة أيضاً منضبطة بالموازين التي هي انعكاس

تلك الحقائق عند المؤمن ، والتي لابد من حسن تصورها والإيمان بها لوضع الأمور موضعها الطبيعي ، مهما تمادى الزمن وتقلبت الأيام وازدحمت على طريق المسلمين الوقائع والأحداث ، **وإلا فستظل الأمور تتدحرج من انتكاس إلى انتكاس أشد منه ، حتى يعود المسلمون إلى إدارك الحقائق من منابعها الأصيلة وإعداد القوة إيماناً وعلماً وعملاً ، وأخذاً بأسباب الجهاد في سبيل الله من شتى أطرافها .**

هذا : وقد وقفتنا بعض النصوص من القرآن والسنة ـ كما رأينا في صفحات قريبات ـ على مدى الجزم الذي اتسمت به الأحكام التي أعطيت في شأنهم . وكان من صنيعهم لجوؤهم إلى الحيلة بنية التفلُّت من أحكام التوراة التي يزعمون أنهم مؤمنون بها كما أنزلت على موسى عليه السلام .

رأينا من ذلك قضية تتعلق بإقامة الحدود ، وقضية تتعلق ببيع الشحوم التي حرمها الله عليهم ؛ ففي الأولى كذبوا على رسول الله وحاولوا كتمان الموجود في التوراة ، وفي الثانية احتالوا بتغيير اسم الشحوم باسم آخر فباعوها وأكلوا ثمنها حراماً وسحتاً في بطونهم وقال رسول الله ﷺ في ذلك : (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها) وجملوها : أذابوها حتى أصبحت تسمى الودك وهو دسم اللحم والشحم .

أجل ! دعا عليهم رسول الله باللعن ـ وهو الطرد من رحمة الله ـ أو أخبر عن أن الله لعنهم وطردهم من رحمته فهم المطرودون من رحمة الله المغضوب عليهم ـ والعياذ بوجهه سبحانه ـ

والنص القرآني في تحريم الشحوم عليهم هو ما جاء في الآية السادسة والأربعين بعد المائة من سورة الأنعام من قول الله تعالى ﴿**وعلى الذين هادوا**

حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ .

قال العلماء : المقصود بكل ذي ظفر ما لم تفرق أصبعه من البهائم والطير ؛ كالإبل والأنعام والأوز والبط . وما علق بالظهور فهو مستثنى من الشحوم التي حرمت ﴿ حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ والحوايا : الأمعاء جمع حاوياء أو حاوية ، وما اختلط بعظم هو شحم الإلية فإنه أحل لهم . فما علق بالظهور من الشحم أو حملته الأمعاء أو اختلط بعظم فهو حلال ، وباقي الشحوم حرام . ولكنهم ـ كما أسلفنا من قريب ـ لم يقفوا عند حدود الله بل احتالوا وعبثوا فاستحقوا اللعنة والغضب من الله ومن رسوله عليه الصلاة والسلام .

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد ختمت بما يدل على عدل الله المطلق ، وأنه لم يظلم هؤلاء الناس فيما حرَّم عليهم ؛ فهم الذين طغوا وبغوا فاستحقوا هذه العقوبة بسبب ما جنته أيديهم وما اقترفوه من المآثم ، يقول سبحانه : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ فاسم الإشارة (ذلك) يعود إلى التحريم والباء في قوله سبحانه (ببغيهم) للسببية ، والبغي هنا : الظلم والعدول عن الحق أي جزيناهم بسبب ظلمهم ، فقد ظلموا أنفسهم وظلموا الحق فعدلوا عنه إلى الباطل ، وإنا لصادقون في أخبارنا ومواعيدنا .

والحق أن النصوص القرآنية الواردة في شأن اليهود ، تعطي تكاملاً في كل موضوع من الموضوعات المطروحة ؛ لذا يحسن أن ينظر المؤمن نظرة تكاملية لمجموع النصوص في الموضوع الواحد .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن البغي الذي أشارت إليه الآية هنا في سورة الأنعام وهي سورة مكية ، هو ما أشارت إليه مفصلاً سورة النساء وهي سورة مدنية. وذلك قول الله جل شأنه في الآيتين الستين بعد المائة والتي تليها ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما**﴾. قال أبو جعفر الطبري رحمه الله : يعني بذلك جل ثناؤه: فحرمنا على اليهود ، الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء ، وقالوا البهتان على مريم، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه، طيبات من المآكل وغيرها كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه في كتابه . ثم نقل عن قتادة قوله : عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوه ، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم .

ومما أوخذوا عليه ـ وكان عاملاً من عوامل تحريم طيبات أحلت لهم ـ صدُّهم عن سبيل الله كثيراً ، فقد صدوا عبادالله عن دينه وسبله التي شرعها لعباده صداً كثيراً وكان صدهم عن سبيل الله كما دلت النصوص والوقائع ، بقولهم على الله الباطل ، وادعائهم أن ذلك على الله ، وكتمانهم ما أنزل الله ، وتبديلهم كتابه سبحانه ، وتحريف معانيه عن وجوهه . قال أبو جعفر: وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ ، وتركهم بيان ما قد علموا من أمره لمن جهل أمره من الناس .

وكذلك أخذوا الربا وقد نهوا عنه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل . وأكل أموال الناس بالباطل ما كانوا يأخذون من الرِّشى على الحكم كما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى : ﴿ **وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ وكان من أكلهم أموال الناس

بالباطل ، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم ، ثم يقولـون : هذا مـن عند الله ، وما أشبـه ذلك مـن المآكل الخسيسـة الخبيثة ، فعاقبهم الله على جميع ذلك ـ وهو المنزه عن الظلم ـ بتحريمه ما حرَّم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك .

وواضح أن العقـوبة الإلهيـة ، لم تقتصر على ما كان في الـدنيا مـن تحريم طيبات أحلت لهم ، مما رأينا تفصيله في سورة الأنعام ، بل يضاف إلى ذلك العذاب الأليم في الآخـرة ، وذلك ما أشير إليه في ختام الآيـة الثانية والستين بعد المائة مـن سورة النسـاء ـ كما جـاء ذكرهـا من قـريب ـ بقولـه تعالى: ﴿**وأعتـدنا للكافرين منهم عذابا أليماً**﴾ .

وكنت أسلفت من قبل أن (من) هنا بيانية ـ كما يقول العلماء ـ وليست تبعيضية ، فالله تعالى أعدَّ للكافرين بـالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود العذاب الأليم ـ وهو العذاب الموجع ـ من عذاب جهنم عنده يصلونها في الآخرة إذا وردوا على ربهم .

وهكذا يبدو التكامـل واضحاً بين ما جاء في سورة الأنعام ـ وهي سورة مكية ـ وبين ما جـاء في سورة النساء بشأن ما حرم على اليهـود من الطيبات وكيف أن ذلك كان بظلمهـم وبغيهم ـ وهي سورة مدنيـة ـ كما سنأتي على إيضاحه فيما نستقبل من الحديث إن شاء الله .



أحرص الناس على حياة

أسلفت في صفحات خلت ، أن الوضوح والجزم كانا طابع القرآن الكريم والسنة النبويـة المطهرة في الحديث عن اليهـود . وهي مقولة قـدمنا لها عدداً من النماذج .

ومن حِكم ذلـك ـ والله أعلم ـ أن يكـون المسلمون على الصراط السوي في تحقيق وجـودهم الـذاتي عقيدة وتشريعاً وسلـوكاً ، وقـدرة على الإنجاز الحضاري السليـم ، وأن لا يقعوا فـريسة المكـر الذي يمكـره اليهود ، وأن يكونوا بمنجاة من تقليدهـم فيما انزلقوا إليه من انحراف ، لكيلا يصيبهـم ما أصابهم ، والعياذ بالله تعالى .

ونحن الآن على موعـد مع خطوة أخرى ، نتلمَّـس من خلالها مزيـداً من الـدلالات الحكيمة في تعـريـة مواقـف يهود ، أو طـوائف منهم ـــ على ذاك المستوى من الوضوح ـ ونبيِّن العبرة من ذلك بالنسبةللأمة المحمدية ، التي جعلها الله أمـة وسطاً ، وأولاها أمـانة الشهـادة على الناس . وما أحـوج هذه الأمة ـ وهي على عتبـة يقظة جديدة ـ أن تكون حفيَّة بالكلمـة القرآنية تعي أبعادها، وتبذل قصارى جهدها لتكون على مستوى العمل والتدبر .

جاء في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين مـن سورة البقرة قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ وتدل الروايـات أن هذه الآية الكريمـة تحكي قصة قوم مـن بني

إسرائيل كانوا في قريـة يقال لها داوردان أو ذاورداب ، وعددهم أربعة آلاف أو ثمانية آلاف أو أكثر - كما روي عن ابـن عباس رضي الله عنهما - فأصابهم الطاعون ، فخرجوا من القرية هاربين من الموت وقالوا : نأتي أرضاً ليس بها موت . ولكن فرارهم لم يغن عنهم شيئاً ، فأماتهم الله ، ثم مر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم .

وقد ذكر الحافظ ابـن كثير في التفسير ، ما روى وكيع بن الجراح في تفسيره بسنده إلى سعيد بـن جبير عن ابن عباس في قـوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الـذين خرجـوا من ديارهـم وهم ألـوف حذر الموت** ﴾ قـال : كانـوا أربعـة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، قالوا : نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا ، قال الله لهم : موتوا فماتوا ، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء ، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهـم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حـذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون** ﴾ .

وأنت واجد أن في إحياء هؤلاء الناس بعد الموت ، عبرة ودليلاً قاطعاً على وقوع المعـاد الجسماني يوم القيامـة ؛ فالـذي قدر على الإحياء هنـا ، قادر على الإحياء والبعث يوم الدين .

هكذا يتفضل الله على عباده ، فيريهم الآيات الـدالة على أنه قادر على أن يحيي الموتى، ويقفهم بين يديه للحساب،ولكن أكثرهـم لايشكرون فيعتبرون، ذلكم قول الله جل وعلا في ختام الآية المشار إليها ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكـرون** ﴾ أي لا يقـومون بشكـر ما أنعـم الله عليهم في دينهـم ودنياهـم ، وما تفضل عليهـم من تبيان الطريـق التي تقودهـم إلى الاعتبار

واليقين بأنهم مبعوثون بعد الموت .

هذا : وقد كان من فعل اليهود المعْنيينّ في الآية ، أنهم لم يأخذوا بالأسباب أولاً ، وحسبوا أن فرارهم حذر الموت ، يمنع وقوع الموت بهم ... فجاءت الآية الكريمة لتدل على أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأن هؤلاء القوم خرجوا من ديارهم فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة ، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً أجمعين في آن واحد .

ويريد الله للمسلمين ـ كما أسلفت ـ أن يكونوا على المحجَّة البيضاء في مواجهة الوقائع ، ولا يستسلموا للتقليد الأعمى ، فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك اليهود . لذا فإن الآية الكريمة ـ كما دلت السنة المطهرة ـ لا تتعارض مع الأخذ بالأسباب لتوقي الوباء النازل ، بل إن الأخذ بأسباب الوقاية مطلوب وهو شيء غير الذي فعله من عناهم الله تعالى بقوله : ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت...**﴾ الآية .

فقد جاء في الحديث الصحيح ، الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ، واللفظ للبخاري ، عن إبراهيم بن سعد قال : سمعت أسامة بن زيد يحدث سعداً عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » فقلت : أنت سمعته يحدث سعداً ولا ينكره ؟ قال نعم .

ولقد وعى الصحابة رضوان الله عليهم وصية النبي ﷺعندما علموا بها ، ووقفوا عندها ، حيث أخذوا بأسباب الوقاية مدركين أن ذلك لا يتنافى مع التوكل وصدق الإيمان بالقدر .

فقد روى أحمد والبخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري هنا أيضاً عن عبد الله

ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرْغ لقيه أمراء الأجناد ـ أبوعبيدة بن الجراح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر ، ولا نرى أن نرجع عنه وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس: إني مصبِّحٌ على ظهر ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفِراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عُدوتان: إحداهما خصيبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبدالرحمن بن عوف ـ وكان متغيباً في بعض حاجته ـ فقال : إن عندي في هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » فحمد الله عمرُ ، ثم انصرف .

هذا وخروج عمر رضي الله عنه إلى الشام في الواقعة المشار إليها ، كان سنة ثماني عشرة أو سبع عشرة للهجرة ، والطاعون الذي وقع بالشام حينئذ هو طاعون عمواس . وسرْغ : مدينة افتتحها أبوعبيدة ، ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن وضاح أنها هي واليرموك والجابية متصلات ، وبينها وبين

المدينة ثلاث عشرة مرحلة . والعدوة المكان المرتفع من الوادي وهو شاطئه .

وأنت تـرى كيف أن عمر رضي الله عنه ، أجـاب أبا عبيدة على مـا حسبه من أن الدخـول إلى بلد الطاعون فرار مـن قدر الله ، أجابه بقولـه : نفرٌّ من قدر الله إلى قدر الله .

وهكذا كشفـت الكلمات القرآنيـة عن مـوقف أولئـك اليهود ومحاولتهـم الهروب من الموت حرصـاً على الحياة دون إتيان الأمور من طرقهـا المعقولة في الأخذ بالأسباب .. وشاء الله لهذه الأمة أن لا تقع فيما وقعوا فيه ، ودلّنا رسول الله ﷺ على ما وصـل إليه الإنسـان بعد قـرون وقرون مـن ضرورة الاحتراس والأخذ بأسباب التـوقي في مواجهة الطاعون (إذا كـان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه) .



فاعتبروا يا أولي الأبصار

عرضنا فيما مضى لما ذكر الله عن جماعات من بني إسرائيل ، كيف أنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عندما أصاب أرضهم الطاعون ، فعلوا ذلك لشدة تعلقهم بالحياة ، زاعمين أن ذلك ينجيهم من الهلاك دونما أخذ بالأسباب على الوجه المطلوب ، فأماتهم الله ثم أحياهم ليستكملوا أجلهم ، وكان في ذلك عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، إذ أن هؤلاء اليهود خرجوا فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة ، فعوملوا بنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد . والآية التي حملت إلينا ذلك عن أولئك الأناسي هي الآية الثالثة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة ذلكم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ .

ونحن الآن على موعد مع الآيتين اللتين تليان الآية المذكورة ، ننظر فيهما ، ونسعد بالكشف عما يربطهما بها ، استكمالاً لما يمكن من العبرة بتلك القصة التي وقعت للألوف المومى إليهم من اليهود ، لأن الكلمة القرآنية في مجال العبرة والدرس تحمل الحظ الوافر أبداً من التوجيه للمسلمين كيما يفيدوا مما حصل لغيرهم حينما وقعوا في المخالفة عن أمر الله ، فلا يغفلوا فيقعوا في المخالفة كما وقعوا ، بل يتخذوا من ذلك حافزاً لالتماس الصواب أينما كان ، والعمل على إحكام السير في الطريق التي تمليها العقيدة الصحيحة ، وتقتضيها شريعة الإسلام المباركة .

والآيتان اللتـان نومئ إليهما هما قول الله جـلَّ وعز : ﴿ **وقاتلـوا في سبيل الله واعلمو ا أن الله سميع عليـم . من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنـاً فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً والله يقبض ويبسط و إليه ترجعون** ﴾ .

وهذه وقفـة عند الآيـة الأولى بالقـدر الذي يتسـع له المقـام ويوحـي به الأسلوب الحكيم المعجز في القرآن الكريم .

تنزلت سورة البقرة ـ وهي سورة مدنية ـ والجهاد مفروض على المسلمين ، وميادين القتال في سبيـل الله ، تزخـر بأولئك المجـاهديـن الذيـن أيقنوا أن أنفسهم وأموالهم مباعة لله عز وجل ، وهم مسـتبشرون ببيع الله الذي بايـعوا به ، ويأتي الحديث عن فئام مـن اليهود في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين من هذه السـورة ، ليكشف عن رغبتهم العشوائيـة في الحياة ، وعملهم على مصادمة القدر ، بصورة تخلو من أي شعور بمسؤولية العقيدة التي يزعمون أنهم بها مؤمنون ... فيوجه الله المسلمين آمراً لهم بالقتال في سبيله ، فالآجال بيد الله ، والأعمار من القـدر المقدور عند الله ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتـم في بروج مشيـدة** ﴾ فليقـدموا على القتـال في سبيل الله تحت رايـة الكلمة الطيبـة لا إله إلا الله ؛ فـالإقدام في قتـال أعداء الله لا يقـرب أجلاً ، والإحجام عن ذلك لا يؤخر أجلاً ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستـأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ .

ها هم اليهود خـرجوا من ديارهم وهم ألـوف حذر الموت ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً ، فجاءهم الموت جميعاً بآن واحد بـأمر الله ، أجل جاءهم بأمر الله الذي لا تخفى عليه خـافية . والذي فروا منه وقعوا فيـه ، ثم أحياهم الله الذي بيده الموت والحياة ليستكملوا آجالهم .

هكذا نرى أن قصة هؤلاء الألوف من بني إسرائيل ، تساق مساق العظة والاعتبار ، وتخرج الكلمة القرآنية بالحديث عن فعل اليهود إلى تثبيت الرغبة في الجهاد في نفوس أصحاب الرسالة الخاتمة ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ .

وهكذا يتلو التالي قول الله تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ يتلو التالي هذه الآية الكريمة ليقع بعدها مباشرة على قول الحكيم الخبير ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ . أجل : وقاتلوا في سبيل الله لإعلاء دينه ، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ونياتكم ، فيجازيكم . ويا نِعم ما يعطي الله المجاهدين الصابرين الصادقين . وإذا كانت الآية هنا صورة معبرة عن الأسلوب المعجز في القرآن ، بالخروج من الكلام عن اليهود و صنيعهم فراراً من الموت ورغبة في الحياة على أي شكل ، إلى دعوة المؤمنين أن يثبتوا على القتال في سبيل الله .

إذا كانت الآية هنا صورة عن ذلك ؛ فإن المؤمنين قد سَمَت ـ بعون الله ـ نفوسهم إلى الحد الذي جعلهم يضعون هذا التوجيه وأمثاله موضع التنفيذ في حياتهم العملية حتى أصبح التسابق إلى ميادين الجهاد والتفاني في سبيل الله جزءاً من وجودهم الذاتي .

على أن القرآن الكريم قد أعطى هذه الحقيقة ، حقيقة أن الأجل محتوم وأن الفرار من الموت لا يؤخره ، وأن الإقدام على طلب الشهادة لا بد منه ، أعطى هذه الحقيقة اهتماماً واضحاً ؛ ففي شأن المنافقين ، وما أوضح تأثرهم بأخلاق اليهود ، نقرأ بدءاً من الآية السادسة والستين بعد المائة من سورة آل

عمران قول الله جلت قدرته : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواهم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

أرأيت : قل فادروؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . وفي الآية السابعة والسبعين من سورة النساء نقرأ قول الله جلَّ وعز ﴿ وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب . قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً . ﴾ تلا ذلك قوله سبحانه : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

ألا ما أعظم أن يستأنف المسلمون طريقهم إلى تدبر آيات الله ، والاعتبار بما قصته عن اليهود في صنيعهم وخلائقهم ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ إنهم إنْ فعلوا ذلك كانوا على الجادة واستطاعوا ، بعون الله ، أن يحققوا ذاتهم بعد ضياع أو ما يشبه الضياع ، وأن يحولوا النكبات إلى نصر مبين ، والحمدلله رب العالمين .

يحزن أنه لم يقتل في المعركة

أجدني ـ والحديث متابعة لاستلهام آيات مـن سورة البقرة ، كانت أولاها عن واقعـة ذات دلالة على تعلق اليهـود العشوائي بـالحياة ـ أجـدني والأمر كذلك ، مسوقـاً إلى التذكير مرة أخرى بنص تلك الآيـات نفسها كيما تكون المتابعة أقرب إلى السلامة إن شاء الله .

والآيات هي قول الله تعالى في السورة المومى إليها وهي إحدى الزهراوين بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله مـوتوا ثم أحياهم ، إن الله لذو فضـل على النـاس ولكن أكثـر النـاس لا يشكـرون . وقاتلـوا في سبيـل الله واعلموا أن الله سميع عليم . من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ .

وقد رأينا في النقلة من الكلام على أولئك الفئـام من اليهود الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فراراً من الموت، فقوبلوا بنقيض ما أرادوا ، إذ جاءهم الموت مرة واحـدة ثم أحيـاهم الله ليستكملوا آجـالهم .. رأينا في النقلـة من الكلام على أولئـك اليهود إلى الأمر بـالقتال لإعـلاء كلمة الله بقولـه تعالى : ﴿**وقـاتلـوا في سبيـل الله واعلمـوا أن الله سميـع عليـم** ﴾ سِمـة مـن سِمات الأسلوب الحكيم المعجـز في القرآن الكريم ؛ فكأن الكلمة القـرآنية تنادي وتثبت في خلدهم وتصورهم ، أنه مادام لا يغني حذر من قدر ، وأن الآجال بيـد الله ، فهـي محتـومة مقضيـة .. فليثبتـوا على القتـال في سبيـل الله ، مهما اشتدت المخـاطر وتفاقمت الصعـاب فما عند الله خير وأبقى ، ويـا ما أجمل

تلك الحياة التي تكتب للشهيد الذي يقضي في ساحة الجهاد . ورضي الله عن أبي بكر في قوله: « اطلب الموت توهب لك الحياة » .

ويجدر بنا أن نتذكر، **والأمة الاسلامية تعاني ما تعاني من اليهود** ، الذين ذكر الله في كتابه من قصصهم ما ذكر ، ووصف من خلائقهم **ما وصف** ، وأراد لهذه الأمة أن تقف موقف العبرة التي تدفع إلى الأخذ بالأسباب واستقامة العمل والسلوك ... يجدر بنا أن ندّكر أن الرعيل الأول ، عندما تدبروا القرآن ووقفوا عند أمره ونهيه ، وكانوا عند كلمة رسول الله ﷺ لأن طاعته من طاعة الله . . . استطاعوا أن يحققوا للأمة وجودها الذاتي تحت راية الكلمة الطيبة **لا إله إلا الله محمد رسول الله** ، ولئن كان أولئك اليهود ـ كما دلت الآية ـ قد خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، إن المسلمين الصادقين كانوا بجهادهم يستعذبون الموت في سبيل الله لأنه طريقهم إلى حياة أفضل عند الله ، ففي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ وهم على خير في كل حال ، ماداموا على صدق النية والإيمان بوعد الله ، ذلكم قول الله جل شأنه في سورة النساء : ﴿ **فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ بل كان بعضهم يحزن أن يموت على فراشه ، فلا يقتل وهو يقارع أعداء الله في الميدان ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره (وروِّينا عن أمير الجيوش ومقدم العساكر وحامي حوزة الإسلام وسيف الله المسلول على أعدائه أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال وهو في سياق الموت: (لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت

أعين الجبناء) يعني أنـه يتألم لكونه ما مات قتيـلاً في الحرب ، ويتأسف على ذلك ، ويتألم أن يموت على فراشه .

أما اليهود الذين يشهد العالم غطرستهم وعدوانهم على الحق وأهله بسبب ضعف الـوجود الحقيقي للمسلمين وقعـودهم عـن الجهاد : فقد أشهـدنا القرآن أن ما صنعـه أولئك الذين خرجـوا من ديارهم حـذر الموت ، لم يأتوا بجديد ؛ فمن أبـرز صفات اليهودي حرصه على الحياة وخـوفه من الموت، وتلك حقيقة قـررها الكتاب الكريم على صورة لا تقبـل الاحتمال ، ها نحن أولاء نقرأ في سـورة البقرة بدءاً مـن الآية الـرابعة والتسعين قول الله تبـاركت أسماؤه : خطاباً للنبي ﷺ بشأن يهود : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصـةً من دون النـاس فتمنوا الموت إن كنتـم صادقين** ﴾ ثم نفـى الله عنهم نفياً قـاطعاً أن يفعلوا ذلك ، لأنهم على علم بما هم عليـه من الظلم ، وما تجنيـه أيديهم من الشر والفسـاد فقال سبحـانه : ﴿ **ولن يتمنَّـوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

ولا يقتصر الأمر على ذلك بـل هم أحرص الناس على حياة ، ومـن الذين أشركـوا ، يود أحـدهـم لو يعمـر ألـف سنة ، لعـل الشقـة تبعد بينـه وبين العذاب، ولكنه مهما عُمِّـر فليس ذلك بمزحزحـه من العذاب والله بصير بما يعمـل هؤلاء الظـالمون ، فيجازيهم على أعمالهم بما يستحقـون . وذلك مـا نقـرؤه بعد الآيتين السـالفتين مـن قـول الله سبحانـه : ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركـوا ، يود أحدهم لو يعمَّر ألـف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمَّر والله بصير بما يعملون** ﴾ .

ونظير ذلك ما نقرأ في الآيـات السادسة والسابعة والثامنـة في سورة مدنية أخرى وهـي سورة الجمعة مـن قول الله تبـارك وتعالى: ﴿ **قل يا أيها الـذين**

هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

ألا و إن الحقائق التي عرض لها القرآن ـ وهو يكشف عن سمات اليهود ـ أمانة في أعناق المسلمين ، و إدراك ذلك وأداء حق الله فيه ، كفيل ـ إذا صدقت العزائم واتخذت الأسباب ـ أن يغير مجرى الأحداث ويعيد الأمور إلى نصابها ، وعندها يملي المسلمون ـ بعون الله ـ إرادتهم على التاريخ من جديد ... وينحسر ما نرى من اتخاذ أمة المسلمين هزواً ، وتنطُّع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وتسربلوا غضب الله إلى يوم الدين .

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا

النظرة المتدبرة في الآيات التي أسعدنا اصطحابها وهي تكشف عن صنيع اليهود المنافي للإيمان بالقدر واعتقاد أن الآجال بيد الله ، وتدعو إلى الصدق في المواطن ، والإخلاص في طلب الشهادة في سبيل الله ... هذه النظرة المتدبرة الواعية .. تعطي ـ فيما تعطي ـ أن على المسلمين أن يعتبروا بما حصل لأولئك الناس الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فلم يغنهم ذلك شيئاً ، وأن يتخذوا من ذلك حافزاً جديداً للقتال في سبيل الله ، وصدق ما عاهدوا الله عليه ، وهو حافز يضاف إلى ما في قلوبهم وعقولهم من دواعٍ إيمانية تدفع بالمؤمن إلى ساحات الجهاد ، وهو يستعذب الموت في سبيل الله. ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ .

ونحن الآن على موعد مع آية أخرى تلت هذه الآية التي جاءت عقب قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ..** ﴾ الآية ، والآية التي نعنيها هي قول الله جلَّ وعز : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ فقد جاءت عقب قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ .

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنه لما كان اليهود حريصين على الحياة ، حرصاً يعميهم عن أبسط قضايا الإيمان ، جاء تذكير المسلمين بالقتال في ضوء العبرة بما صنع اليهود حرصاً على الحياة .. . وكما أن الآجال بيد الله ، فالأرزاق بيد الله أيضاً . ولما كان اليهود حريصين على المال حرصاً يجعلهم

يستهينون بكل ماله صلة بالعقيدة والأخلاق والسلوك ، ذكرَّ الله المؤمنين بأن يكونوا على المنهج السوي الذي يخالف ما عليه اليهود ؛ فالمال مال الله ، والعباد عباد الله ، وهم مستخلفون في هذا المال ؛ وإذن فلينفق المسلمون المال في سبيل الله، وليعلموا أن إنفاقهم في سبيل الله، قرض حسن لله عزوجل يضاعف عليه أضعافاً كثيرة ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ .

هذا : وإن بذل النفس وبذل المال ، كل منهما صورة عن الشجاعة الحقيقية في النفس ، ولما كان الأمر كذلك : فقد دعي أهل الإيمان إلى الشجاعة في بذل النفس إذ أن الآجال بيد الله ، وإلى الشجاعة في بذل المال على الوجه المرضي عند الله ؛ إذ أن قبض اليد لا يجلب رزقاً ولا يزيد ، كما أن بسطها قرضاً حسناً للهَّ لا يمنع رزقاً ولا ينقصه ، بل يضاعفُ الله ما ينفق في هذه السبيل أضعافاً كثيرة ﴿ والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ . وهو سبحانه بيده الرزق يرزق من يشاء بغير حساب .

هذا : وكما يكون الجهاد بالأنفس ، يكون بالأموال . وما أكثر الآيات التي أمرت المسلمين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وهكذا يبدوا الترابط واضحاً بين الآية التي تحدثت عن تلك الطائفة من بني إسرائيل في صنيعهم المعوجِّ التالف ، وبين الأمر بالقتال والإنفاق في سبيل الله الذي سماه الله في مزيد من الترغيب : قرضاً حسناً لله .

وهذه المقولة التي نحوِّم حولها ، تقودنا إلى ما ذكره الله في كتابه الكريم عن خلائق اليهود بشأن المال وإنفاقه في سبيل الله ، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً**

حسناً **فيضاعفه لـه أضعافاً كثيرة** ﴾ قالت اليهـود : يامحمد لو كـان غنياً ما استقرضنا وفي رواية أنهم قالوا : يا محمد أافتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فنزل قول الله تعالى : ﴿ **لقد سمـع الله قول الذيـن قالـوا إن الله فقير ونحن أغنيـاء ، سنكتب مـا قـالوا وقتلهـم الأنبياء بغير حـق ونقـول ذوقوا عـذاب الحريـق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ .

لقد كانـت قولة فاجـرة ، وفرية عظيمة ، فلـذلك جاء التهديـد والوعيد بقوله تعالى : ﴿ **سنكتب مـا قالـوا** ﴾ مقترناً بقوله جلـت قدرته ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ أي هذا قولهم في الله مـن ناحية الفقر والغنـى ، وهذه معاملتهم أنبياء الله بدل أن يستجيبـوا لدعوتهم ، يقتلونهم ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخـاً، وبيانـاً لعدالة الله المطلقـة ، وأن ما ينالـونه مـن الجزاء ، إنما كان بضلالهم وعدوانهم على الله وعلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

هذا : وعلى الصعيد العملي في علاقتهـم با لمسلمين ، بعد أن حيل دونهم ودون السيطرة الاقتصادية التي كانوا يتربعون على عرشها في المدينة وما حولها قبل الإسـلام ، وقلَّت في أيديهم مـوارد المال الذي كانـوا يجمعونه ممـا هبَّ ودبَّ .. على هـذا الصعيد ، قـالـوا والعياذ بـالله : ﴿ **يـد الله مغلولـة** ﴾ أي مقبوضة عن إدرار الـرزق عليهم كناية عن البخل والعيـاذ بالله ، فنزل قول الله جلت قدرته وسمت حكمته في سورة آل عمران : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولـة غلَّت أيديهم ولُعنـوا بما قالـوا بل يداه مبسوطتان ينفـق كيف يشاء وليزيـدن كثيراً منهم ما أنـزل إليك من ربك طغيـاناً وكفراً ، وألقينـا بينهم العداوة والبغضـاء إلى يوم القيـامة ، كلما أوقـدوا ناراً للحـرب أطفأهـا الله**

ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ .

وإنها لآيات مثقلة بالكشف عن تلكم الخلائق الذميمة ، والتناقض الفاضح بين دعوى الإيمان عند اليهود ، وبين هذا النهج المخزي ؛ فكراً وسلوكاً والعياذ بالله ، كما أنها داعية أوضح دعوة وأبينها ، إلى أن يأخذ المسلمون حذرهم ، مهما امتد الزمن وتطاولت القرون فلا يؤخذوا بزخرف القول ، وبهرجة العناوين ، ولا يتقاعسوا عن إعداد القوة من منابعها جميعاً ، مهما تعددَّت المنابع والمآخذ ، ولله عاقبة الأمور .

أين صنيعهم من صنيع أبي الدحداح؟

كان حصاداً مباركاً مـا وقفتنا عليه آنفاً ، تلكم الآيات الثـلاث من سورة البقرة التي بدئت بقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجـوا من ديارهم ...﴾ وختمت بقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط إليه ترجعون ﴾ .

أجل كان حصـاداً مباركاً دلَّ ـ فيما دل ـــ على سمتين بارزتين من سمات اليهود هما: الجبن والبخل ، ولقد ساعد على هذا الفهم ، ما يشير إليه ورود آيتي القتال والإنفاق في سبيل الله ؛ بعد الحديـث عن تلكم الألوف من بني إسرائيل الذين فروا من الموت ، فعوقبوا بنقيض ما أرادوا . ولا يغرنك ما يُرى من غطـرسة اليهـود وصلفهم اليـوم ، فالحقبة التـي تمر اليوم بعـلاقتهم بـأمة الإسلام حقبة شاذة مرتبطة ارتباطاً جذرياً بعدم الوجود الحقيقي للمسلمين، ولو كـان للمسلمين ـ وهم أمـة العقيدة والجهـاد ـ وجود ذاتي على الـوجه الذي تقتضية طاعة الله ورسوله ، لرأيت الحقيقة في خصال اليهود التي أخبر عنها القرآن الكريم عارية لا تحجبها عن الأنظار غاشية زيف ولا تمويه .

ومهما يكن من أمر : فإن تدبُّر آيـات الكتاب الكريم التي تسوق العبرة في صنيع بني إسرائيـل وغيرهم من الأعداء ، كيما يكون المسلمـون على بينة من أمرهم في الأحـوال جميعها من السلم والحرب ، وبخاصـة في علاقتهم بهؤلاء القوم ومن لفَّ لفَّهم ؛ إن تدبر آيات الكتـاب على هذا الصعيد يتأكد وجوبه كلما حـزب الأمر واشتـدت الحاجة إلى المنـار الهادي يضيء السبيل ويضـع حداً للمتاهة والضياع .

هذا : وأنت واجد أن قول الله جل ثناؤه : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ...** ﴾ كان مصدر إثارة لكوامن البخل الدفين عند اليهود والحرص على المال دونها حدود أو قيود ؛ فانطلقوا يسيئون الأدب مع الله وينطقون بالهجر من القول ، وقد أشرت سابقاً إلى ما روى ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزل قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ قالت اليهود : يامحمد أافتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال : (دخل أبوبكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبوبكر : ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله ياأبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهانا عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ، ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد ، لضربت عنقك ياعدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ ما حملك على ما صنعت يا أبكر ؟ فقال: يارسول الله إن عدوَّ الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ،

فلما قال ذلك ، غضبتُ لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاصُ ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص : ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقٍ ونقولُ ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾) .

ويبدو أن هذه القولة الظالمة التالفة ، قالها غير واحد من اليهود ، فقد روى الطبري بسنده عن الحسن البصري أنه قال : لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ قال : عجبت اليهود فقالت: إن الله فقير يستقرض فنزلت ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾.

كما روى بسنده عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أنها نزلت في حُيي بن أخطب لما أنزل الله ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ قال : يستقرضنا ربنا ، إنما يستقرض الفقير الغني .

قال أبو جعفر رحمه الله : فتأويل الآية إذاً ، سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق .

هذا: وقد جنح الإمام الطبري إلى أن قوله تعالى : ﴿ **ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السمٰوات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ يدخل فيه دخولاً أولياً اليهود الذين جاهروا الله العداء عندما جاءهم الأمر بالزكاة ، فوصفوه سبحانه بالفقر . قال عند تفسير هذه الآية (فوصف جل ثناؤه قول المشركين من اليهود الذين زعموا عند أمر الله إياهم بالزكاة أن الله فقير) ذلكم هو موقف أعداء الله اليهود من شرعة الله وأحكامه ، لا يكتفون

با لمخالفة والعصيان ، بل يتجاوزون ذلك إلى مقالة السوء والإفك الأسود والعياذ بالله .

وعلى النقيض : ما نجد من استجابة المسلمين لما جاء من ترغيب القرآن في الإنفاق في سبيل الله ؛ ففي الوقت الذي كان انعكاس قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ وما شرع في المال من الحقوق المالية على نفسية اليهود المغرقة في المادية والشح أن قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . تطالعنا المصادر الموثقة بما روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالله بن مسعود أنه قال: « لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يارسول الله ، قال: فناوله يده ، قال: فإني قد أقرضت ربي عزوجل حائطي قال: وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح ، فناداها يا أم الدحداح، قالت : لبيك ، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عزو جل » .

وأدَع للقارىء الكريم أن يذهب ذهنه كل مذهب على صعيد التعليق وما يمكن أن يدعى ـ مجازاً ـ با لمقارنة .. وأين الثرى من الثريا ؟ والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

نقض العهد والنكوص عن القتال

كانت إيحاءات إيمانية تربوية كريمة تلـك التي فاضت بها الآيات الثالثة والأربعون والـرابعة والأربعـون والخامسة والأربعـون بعد المائتين مـن سورة البقرة والتي استنرنا بهداها فيما مضى . أجل : كانت إيحاءات تربوية كريمة تلقفهـا المسلمون وهـم ينشئـون المجتمـع المسلم القـائم على شريعـة الله ، ينشئونه واقعـاً ينبض بالحركة والحياة ، غير مقطـوع عن العبرة بالماضي ، ولا متجافٍ مع الـدروس التي تستخلص من تـاريخ بني إسرائيل ومـا حصل لهم من الوقائع .

والحق أن الإفادة مما حصل للماضين وخصوصـاً بني إسرائيل عبر تحركهم في مواجهة رسالة السماء ، ذخيرة لا تقتصر على حقبة زمنية في حياة المسلمين، بل هي للجيل الأول الـذى تولى ـ بعون الله ـ إنشاء الـواقع المسلم ، وهي في الوقـت نفسه لكـل الأجيال المتـلاحقة ، إنها ليـومنا و لغـدنا كما كـانت لأمسنا ، يـوم شهدت الإنسـانية تنـزل الوحـي على الرسـول عليه الصـلاة والسلام برسالـة الإسلام ، بل إن صلتها بواقع الأمـة اليوم لا تخفى على ذي بصيرة .

وبعد الذي رأينا من تلك الإيحاءات التي كان منها ، أن على المسلمين أن يعتبروا بما حدث لأولئك القـوم من بني إسرائيل الـذين خرجوا مـن ديارهم وهم ألوف حذر الموت فلم يغن عنهم الفرار من الموت شيئاً .

أجل: أن يعتبر المسلمون فلا يهنوا ولا يتخلفوا عن الجهاد حباً في الحياة ،

ولا يهابوا الموت في سبيل الله ؛ فالأجل واحد لا يقربه إقدام ، ولا يؤخره إحجام ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، والأمور مقضية عنده سبحانه في كتاب مبين . ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ .

كما أن على المسلمين أن يبذلوا المال في سبيل الله ، ولا يتخلفوا عن الإنفاق حرصاً على المال ، فالأرزاق بيد الله ، كما أن الآجال بيده سبحانه ، والإنفاق في سبيل الله قرض لله ، وهو الغني ، يضاعفه للمقرض أضعافاً كثيرة ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون**﴾ .

ونتابع الرحلة المباركة مع سورة البقرة في الحديث عن بني إسرائيل ، لنجد الآيات بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين تقص علينا خبر حادثة أخرى مثقلة بالعظات والعبر ؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجْنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كُتب عليهم القتالُ تولوّ ا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

إنها حادثة أخرى لبني إسرائيل تحمل تجربة ذات دلالة لمن يعقل ويتبصَّر؛ وقعت لهم من بعد موسى عليه السلام ، وذلك بعد أن ضاع ملكهم ، ووقعوا في شرك الذل لأعدائهم ، وذاقوا الكثير من الويل ، بسبب نقضهم المواثيق ، وانحرافهم عن هدي الله القويم .... فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل من ذوي الرأي والمكانة فيهم ، إلى نبي لهم بعد أن دعاهم إلى الله وتوحيده في ذلك الزمان .. تقدموا إليه طالبين أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، كي يقاتلوا في سبيل الله ، وكان أعداؤهم ــ كما أسلفنا ـ قد

سلبوا ملكهم وأموالهم ، ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون .

وأراد نبيهم أن يستوثق من ثبات نيتهم ، وجديتهم فيما يطلبون من القتال فقال لهم : هـل عسيتم إن كتب عليكم القتـال ، فأقام الله لكـم ملكاً ، ألا تقاتلوا وتفـوا بما التزمتم من القتـال معه ؟ ذلك لأنه إذا تقـرر القتال ، فهو فريضة مكتوبـة ، لا سبيل إلى النكول عنها . وهنا ذكروا مـرة أخرى ما نالهم من أعـدائهم في الماضي ، حيث أخـذت البلاد وسبيت الأولاد ، وذلـك من الحوافـز التي تجعـل القتـال أمـراً متيقناً لا تـردد فيـه . عنـد ذلك اشتـدت حماستهم ـ بحسب الظاهر ـ للمواجهة واستنكروا ما قاله النبي لهم ، فقالوا: ﴿ **ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟** ﴾ .

ولكن ما لبثت فورة الحماسـة أن همدت عند الاختبار الحقيقي ، وحصل ما تـوقع النبـي ، فإن كثرة بنـي إسرائيل هؤلاء ، عنـدما استجيـب لطلبهم وكتب عليهم القتال ، نكصوا على أعقابهم وتولوا مخالفين التزامهم ، تاركين دعوى الرغبة في قتال العدو رماداً تـذروه الرياح . ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم في ختام الآية التي نحن بصددها فقال تعالى : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

وهنا يطلعنا الكتاب الكريم على سمـة خاصة من سمات بني إسرائيل في نقض العهـد بلا حياء ، والنكث بـالوعد ، دونما شعـور بالمسؤولية ، وعـاقبة تفرق الكلمة . ثم في مـداومة التفلت من الطاعة والنكـوص عن التكليف ، والتولي عـن الحق الذى قامت الأدلـة كلها عليه ، وأقـاموا الدنيا وأقعـدوها مدعين تأييده والالتزام به .

ولقد أنكر الله عليهـم ذلك ، وحكم على ما صنعوه في التـولي عن القتال

بعد أن كتب عليهم ، بأنه ظلم ، وتوعدهم العقوبة على هذا الظلم . لقد ظلموا أنفسهم ، وظلموا نبيهم، وظلموا الحق الذي خذلوه ، وهم يعرفون أنه الحق ، كل أولئك وهم يدعون أنهم أهل الحق ، وأنهم حريصون على الجهاد في سبيل الله . ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ عليم بهم يجزيهم بظلمهم - حيث خانوا العهد ونكلوا عن الجهاد - أسوأ مصير في الدنيا والآخرة .

ألا إن في هذا الذي تحدث عنه القرآن عن بني إسرائيل ، لعظة بالغة يفترض أن يتدبرها المسلمون ، كيما يسهم هذا التدبر في تعليل الواقع من حيث العلاقة باليهود ، والتبصُّر بأسبابه ، ثم في المحاولة الجادة لتغييره بإذن الله ، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله ، ويتكشف لمن كان على بصره غشاوة، أن الحقائق القرآنية هي الحقائق التي لا يعتريها التحويل أو التبديل ، لأنها من تنزيل الحكيم الحميد .

ولعل من الخير أن أذكر بالآية الكريمة مرة أخرى حيث يقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ والحمد لله الذي جعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب .

يتبدلون اللجاجة بالطاعة

كانت لنا آنفاً وقفة متأملة عند الآية السادسة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة ، التي كشفت من خلال واقعة عملية حدثت لملأ من بني إسرائيل عن سمة من سمات هؤلاء الفئام من البشر وهي : نقض العهد والنكث بالوعد ، والتولي من ساحة الواجب ، تفلتاً من الطاعة ، ونكوصاً عن التكليف ؛ فقد تولوا عن القتال إلا قليلاً منهم ، بعد أن عاهدوا نبيهم عليه السلام بحملة شديدة ودعوى عريضة ، الأمر الذي كان السبب في الحكم عليهم هنا بأنهم ظالمون .. ظالمون لأنفسهم ، ظالمون لنبيهم ، ظالمون للحق الذي يزعمون أبداً أنهم من أنصاره ، ويدَّعون حرصهم على القتال في سبيل الله من أجل نصرته في مواجهة الباطل .

والآية الكريمة التي نعنيها ، والتي كشفت عن ذلك بوضوح تام ، هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ...** ﴾ الآية .

ونتابع الرحلة مع الكلمة القرآنية السخية بالعطاء ، لنرى ما آل إليه الأمر فيما بعد ، وكيف كان موقف القلة التي ثبتت على إرادة القتال ، هل تابعت الطريق ، أم تعثرت فيما بعد ؟ ها نحن أولاء نقرأ فيما جاء بعد الآية السابقة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعةً من المال ؟ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ .

أرأيت إلى هذه اللجاجة والجدل العقيم ، تلكم واحدة من سمات بني إسرائيل أيضاً بدت من خلال هذه الحادثة ، كما بدت من خلال عدد من الوقائع والحوادث .

لقد كان مطلبهم من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله تحت لوائه . إنهم يريدون ـ على زعمهم ـ أن يقاتلوا في سبيل الله ، ويريدون أن يكون ذلك تحت لواء الملك الذي طلبوا من النبي أن يبعثه لهم ﴿ **قالوا ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله** ﴾ ولكن ها هم أولاء يركبون متن اللجاجة ، فينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون فيما اختار الله لهم كما أخبرهم نبيهم . فلما قال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً استنكروا أن يكون طالوت ـ الذى اختاره الله لهم ـ ملكاً عليهم ، ولمَ هذه المزاحمة الباردة لاختيار الله عزوجل ؟ لأنهم ـ على زعمهم ـ أحق با لملك منه بالوراثة ، فهو واحد من أجنادهم ، وليس من بيت الملك فيهم . وفي الوقت نفسه لم يؤت سعةً من المال تعينه في منصبه ، وتتيح لهم التغاضي عن أحقية الوراثة . **إنهم لا ينظرون إلى القضية من خلال أمر الله ، وطاعة نبيهم ، والوفاء بما قطعوا على أنفسهم من عهود ، ولكنهم ينظرون من خلال التفلُّت المبطَّن من الطاعة، والحرص على الموازين الجاهلية التي ضربت على قلوبهم، وسخرت عقولهم للتنطع والهوى .**

وهكذا ـ استبدلوا اللجاجة والمواربة والتعنت ، بطاعة نبيهم فيما جاءهم من أمر الله ، فقالوا بشأن طالوت : ﴿ **أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال** ﴾ .

لقد كان الأولى بهم ، طاعة وقول معروف ، ولكنهم لم يفعلوا .. على أن النبي لم يترك الأمر في حدود ما ينبغي من التسليم المطلق دون تعليل ..

ولكنه كشف لهم عن أحقية طالـوت الذاتية وعن حكمة الله في اختياره لهم ، ذلكم قول الله جل شأنه قال: ﴿ **إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم**﴾ فهو سبحانه أعلم بما فيه المصلحة والخير لعبـاده ، فقد اصطفـاه عليهم واختـاره لهم، هذه واحـدة ، وزاده بسطة في العلم والجسم ، وهذه أخرى ، والثالثة ، أن الله يؤتي ملكه من يشاء .

أيـن الذي أرادوه مـن المعايير ، مـن هذا الـذي اقتضت حكمـة الله أن يكون؟ ﴿ **إن الله اصطفاه عليكـم وزاده بسطةً في العلـم والجسم** ﴾ . والأمر قبـل ذلك وبعـده ، لله سبحانـه ، فهو مـالك الملـك ، وصاحـب التصرف الحكيم في ملكـه لا يسأل عما يفعل وهم يُسـألون . ﴿ **والله يؤتي ملكـه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، ليس لفضله حد، ولا لأحد عليه سلطان ، وهو العليـم الذي يعلم الخير أين يكون وبم يكون ، ويعلـم من يستحق ومـن لا يستحق ، ويعلـم كيف توضـع الأمور مواضعها ...

وإذا كان الأمر كـذلك ، فما على العباد إلا الطاعـة والامتثال ، ولكن ذاك الملأ من بني إسرائيل أعرضوا وسلكـوا سبيل التعنِّت والمراء . ولقد كان من حكمة الله وسعـة رحمته ، أنـه على الرغـم مما بـدر من هـؤلاء من اللجـاجة والجدال فيما اختار ــ جل شأنـه لهم ـ شاء سبحـانه أن يقدم لهم النبـي ما يتسق مع ماديتهم المفرطـة ، التي تتطلع دائما إلى الدليل المادي المحسِّ ، إذ لابد لهم من أمر خارق للعادة ، يحرك كوامن الإيمان في القلوب ، ويردها إلى الثقة واليقين ، كيما تستطيع المتـابعة وتحمل أعباء الطريق ؛ ذلكـم ما جاء في قول الله جـلَّ وعز : ﴿ **وقال لهم نبيهـم إن آية ملكه أن يـأتيكم التابـوت فيه**

سكينة من ربكـم وبقية مما ترك آل موسى وآل هـارون تحمله الملائكة ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

إنها خارقة تحمل التكريم لطالوت ، بأن يرد الله عليهم ببركة ملكه فيهم ، ما سلبه منهم الأعداء ، من المقدسات الممثلة في التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التـي أعطاهـا الله لموسى على الطـور . قال الحافـظ ابن كثير في تفسير الآيـة (يقول لهم نبيهـم إن علامة بـركة ملك طـالوت عليكم ، أن يـرد الله عليكم التابـوت الذي كان أخـذ منكم . وفي هذا التابـوت سكينة من ربكـم ووقار وجلال ورحمة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) .

هكذا جعـل لهم نبيهم آية مـن الله ، علامـة من الله أن تقع تلـك الخارقة ويشهدونها ، وهـي مجيء التابـوت بما فيه ، تحملـه الملائكة ، فتفيـض على قلوبهم السكينـة والرضـى ، قال ابـن جريـج : قال ابـن عباس : جـاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت ، والناس ينظرون . لذلك كان مما قاله النبي لهم : ﴿ **إن في ذلك لآيـة لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ إن هـذه الآية تكفـي دلالة قـاطعة على بـالغ حكمـة الله ، وصدق اختياره لطالوت إن كنتم حقاً مؤمنين .

والنـاظر في السـياق ، يبـدو له أن الخارقـة قـد وقعت كما أراد الله تبـارك وتعالى ، فـانتهى القوم منهـا إلى اليقين ، وتوجهـوا مع طالـوت للقتال . ولله عاقبة الأمور .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾

وقفتنا الآيتان السابعة والأربعون بعد المائتين والتي تليها من سورة البقرة، على ما وقع من بني إسرائيل من لجاجة في شأن طالوت الذى اختاره الله لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ، وكيف أن نبيهم أقام عليهم الحجة التي تدفع ما توهموه مسوغاً لرفضهم الانقياد والرضى بطالوت ، وانتهى بنا المطاف إلى ما كشفت عنه ثانية الآيتين ، وهي الآية الثانية والأربعون بعد المائتين ، من أن النبي بين لهم أن العلامة الدالة على صحة ملكه ، وحكمة الله البالغة في اختياره ، أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، وإن في هذه الخارقة دلالة قاطعة على صدق اختيار الله لطالوت إن كنتم مؤمنين .

وقد وقعت تلك الخارقة ، كما دل على ذلك سياق الآيات ، وكما روى عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما . ومع عطاء تلكم الآيات التي تكشف عن بعض من سمات بني إسرائيل ، نتابع رحلتنا بدءاً بما جاء في الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين من قول الله جل ذكره : ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني ، إلا من اغترف غُرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .
بعد تلك الوقائع التي جرت والاختبارات التي تعرَّض لها القوم ، أعد طالوت جيشه من أولئك القلة الذين لم يتولَّوا عن فريضة الجهاد ، ولم

ينقلبوا على أعقابهم خائنين للعهد مع نبيهم من أول الطريق .

ومن الواضح هنا أن النقلة جاءت مباشرة من قوله تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿ **إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾ إلى قوله جل شأنه في الآية التي تلي: ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ...**﴾ الآية . وذلك على طريقة السياق القرآني في سياقه القصص وأسلوبه الفريد في العرض والأداء ، حيث تراه هنا يترك فجوة بين المشهدين ؛ إذ يطوي ما يبْدو جمالُ التعبير والسموُّ البلاغي في طيِّه ، فيعرض المشهد الثاني مباشرة - كما يقول صاحب الظلال ــ رحمه الله ـ وطالوت خارج بالجنود . ﴿**فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غُرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم**﴾ .

لقد أراد طالوت حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل الذين يريد أن يواجه بهم - وقد ذاقوا الهزيمة والذل مرة بعد مرة ـ أولئك الأعداء الذين أذلوهم وسلبوهم مقدساتهم ، أراد أن يختبر مقدار احتمالهم فَطْمَ أنفسهم عما يشتهون ، ومدى استعدادهم للعطاء في مواجهة المشقة والابتلاء .

فالقادر على أن يكون له سلطان على نفسه ، يخضعها للإرادة ويَدينها إن حادت عن الطريق السوي ، في استعلاء على الضرورات والحاجات ، وقدرة على احتمال المشاق وما يولده الابتلاء من مصاعب ... القادر على ذلك يكون بإذن الله قادراً على مواجهة العدو والانتصار عليه .

لقد قال طالوت للجنود لما فصل بهم وكانوا عطاشاً ــ كما تقول بعض

الروايـات ـ : إن الله مبتليكـم ومختبركم بنهـر . وهنا تبرز صـورة الاختبار ، فمن شرب منه فليس مني ، أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ، لأنه ليس من أهل ولايتي وطاعتي ، ومن لم يطعمه فإنه مني ، إلا من اغترف غرفة بيده أي فلابأس عليه .

لقد واجههـم ـ وهـم في الطريـق إلى عدوهـم بهذا اللون مـن الاختبار ـ ليعلـم مـن يصبر معـه ويقـوى على الاحتمال ، ممـن ينقلـب على عقبيـه ، فيضعف أمام الرغبة ، ويؤثر العافيـة . وكانت النتيجة ما أخبر الله تعالى عنه بـقوله : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « مـن اغترف بيده رَوي ومن شرب منه لم يرو » . إنها تجربـة تفيض بالتمحيـص ، والكشف عمن يصلحـون للمهمة الملقاة على عاتق طالوت وعاتقهم ، ممن لا يصلحون لذلك .

فالذين اغترف منهم من يريد ، غرفة بيده ، كان لهم أن بلَّ الكفُّ من الماء ظمأهم ، ولكن ذلك لا يشعر بالرغبة في التخلف .. أما أولئك الذين شربوا بعد كل الذي حصل من التنبيه والإنذار : فقد حكموا على أنفسهم بأنهم لا يصلحـون لحمل العـبء .. **لقـد سقطوا في الامتحـان وكان مـن الخير أن انفصلوا ـ على كثـرتهم ـ عن الجيش الـزاحف ، لأن مثل هؤلاء لايـزيدون الصف إلا تشتتاً وخبالاً** . أخرج الطبري بسنـده عن البراء بن عـازب قال : كنا نتحـدث أن أصحاب محمد ﷺ الـذين كانـوا يوم بدر ثـلاثمائة وبضعة عشر ، على عدة أصحاب طالوت الذين جـاوزوا معه النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن ، ورواه البخاري عـن عبدالله بن رجاء عن إسرائيل بـن يونس عن أبي إسحـاق عن جـده البراء بنحوه ، كما رواه الإمـام أحمد في سنده ونسبـه السيوطي لابن أبي شيبة وعبد بن حميـد وابن المنذر وابن أبي حاتـم والبيهقي

في الـدلائل ، ولهذا قـال تعـالى : ﴿ **فلما جاوزه هو والـذين آمنوا معه قـالوا لاطاقة لنا اليـوم بجالوت وجنوده** ﴾ أي استقلوا أنفسهـم وهم بهذا العـدد القليل عن لقاء عدوهم لكثرتهم .. فشجعهم ـ كما يقول الحافظ ا بن كثير ـ علماؤهم العاملون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله وليس عن كثرة عدد . ولهذا قـالوا: ﴿ **كم من فئـة قليلة غلبت فئة كثيرة بـإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

غلبة الفئة القليلة بإذن الله

في صفحات قريبات ، وقفتنا آيات من سورة البقرة ، بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين ، على بعضٍ من سمات بني إسرائيل في حبهم للّجاجة والجدل العقيم في أحكام دينهم ، هروباً من الواجب، وفي خيانتهم العهود والمواثيق التي يقطعونها على أنفسهم . ومن ذلك ما قطعوه على أنفسهم لنبي لهم من دعوى الرغبة في الجهاد تحت راية ملك يُختار لهم ، يضاف إلى ذلك : طلبهم للعافية من تحمل للمسؤولية وتفضيلهم شهوات أنفسهم ، على ما يقتضيه العمل والجهاد ؛ فهم لم يصبروا على الامتحان ـ إلا قليلاً منهم ـ وترتب على ذلك ما ترتب من نتائج ..

وقد وضح ذلك كله ، وتبيَّنت تلك السمات والخلائق من خلال الوقائع العملية والتجربة ، حيث لم تبق إلا الفئة القليلة التي واتاها النصر على العدو .. وقد جاء الإعلان عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ...**﴾ **الآية** .

هكذا بعد مراحل التجربة ، وسقوط الأكثرين في الامتحان، وبقاء القلة المؤمنة ، رأى هؤلاء أنفسهم ، بعد أن تجاوزوا النهر ، قلة أمام العدو ﴿ **فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ وقال لهم علماؤهم المؤمنون بأن النصر من عند الله وليس بكثرة العدد والعدة وأن الله مع الصابرين على الجهاد الصادقين في ابتغاء مرضاة الله ... قالوا لهم : ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ . وإنما كان

ذلك ، لأن هذه الفئة القليلة ، هي التـي ارتقت إلى رتبة الثبات في الصف ، فحظيـت بالاصطفـاء والاختيـار ، بعد أن زُلـزل مـن زُلـزل . وسقط أمـام الاختبار مـن سقط ، إن هـذه الفئة بعـددها القليـل هي المرشحـة للغلبة في الحقيقة ، لأنها تتصـل بمصدر القوى بإخـلاصها لله عز وجـل ، ولأنها تمثل القوة الغـالبة ، قـوة من بيده الأمـر كله ، وهو القـاهر فـوق عباده ، مخزي الظـالمين ، وقـاهر الجبـاريـن المستكبريـن ، الـذيـن يجاهرون بـالعـداوة ، ويواجهون عباده المؤمنين بالطغيان والظلم والجبروت .

وما يجب الوقوف عنده : أن أولئك الأتقياء الذين يظنون أنهم ملاقو الله ، كانوا على يقظـة إيمانية ظهرت آثارها في تعليلهـم النصر أنه بإذن الله ، وأن الله مع الصابـرين ﴿ **كـم من فئـة قليلة غلبـت فئـة كثيرة بإذن الله والله مـع الصابرين** ﴾ .

وهكذا تكون الغلبـة في معركة الحق مع البـاطل لأولئك الصفوة الـذين كانـوا بإيمانهم أقـوى من الامتحـان ، بل كـان الامتحان صقـلاً لأنفسهم وجسراً لثبـاتهم وصدقهـم في المواطـن . وبعـد ذلك كلـه ــ ومـع أخذهـم بالأسبـاب ـ مـا بُدٌّ من أن يثقـوا الوثوق كلـه، أنهـم منصورون بـإذن الله وأنه سبحانه مع الـصابرين .

والنتيجة التي أحـرزتها الفئة القليلة المؤمنة بعون الله وتأييـده ، نقرؤها فيما ختمت بـه تلك الآيـات التي أتـت على القصة بكـامل خطـوطها العـامة ، وبعض جزئيـاتها التي لابد من ذكرهـا ، نقرؤها في قوله جـل شأنه : ﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده قـالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقـدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

أرأيت : قيل لهم : ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ فكان دعاؤهم عند مبارزة العدو ـ وقد استجابوا للموعظة والتذكير ـ ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ وكيف لاينصر الله أولياءه وقد أخذوا بالأسباب كما أمر ، وتوجهوا إليه بطلب التثبيت والنصر صادقين . يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾.

وهكذا كانت النتيجة التي ترقبها المؤمنون ـ على قلة عددهم ـ وتيقنوها ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ لقد حلت الهزيمة بأولئك الأعداء على يد الفئة القليلة المؤمنة ولكن بإذن الله ؛ الأمر الذى يدل على أن الله قد اختارها لتنفيذ مشيئته سبحانه بعد أن أثبتت أنها أهل للاصطفاء والاختيار ، أجل : لقد هزموهم بإذن الله ، لأن إرادته سبحانه هي النافذة في ملكه وسلطانه .

وشاء الله أن يقتل داود الفتى الصغيرُ ، جالوتَ الملك القوي والقائد المخوف ، وكان من قدر الله أن يتسلم داود الملك بعد طالوت ﴿ **وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء...** ﴾ فكان داود ملكاً نبياً . وختمت الآيات ببيان الحكمة من صراع الحق مع الباطل فقال تعالى : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ وهكذا كلما امتد الزمن وأظلمت الوقائع في علاقة أمتنا بمن يزعمون زوراً وبهتاناً أنهم أتباع داود وشيعته ، تبدت حاجة المسلمين أكثر وأكثر للإفادة مما قصه الله عن بني إسرائيل . فهل نحن معتبرون ؟

(جزاءً بما كانوا يعملون)

كلما ازدادت صلة المؤمن بالقرآن على الوجه المطلوب لهذه الصلة ، من صفاء نية وإخلاص في التذكر والتدبر ، بعد توافر الوسائل ، وما يتطلبه فهم الكتاب العزيز .. ازداد هذا المؤمن إحساساً بأن عطاء القرآن - وهو كلام الحكيم الخبير - لا ينفد ، وبأنه - حقاً - لا يبلى على كثرة الرد ، ولا تسل عن عمق يقين هذا المؤمن الذي يتعاظم ويتعاظم بصدق قول الله تبارك وتعالى في خواتم سورة الكهف : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ وقوله جل شأنه في سورة لقمان : ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمُدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .

أقول هذا بين يدي الإشارة إلى قبس من عطاء الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة والتي تبدو كأنها - والله أعلم - تعقيب على ما جاء من الكلام على بني إسرائيل بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين وحتى ختام الآية الحادية والخمسين بعد المائتين ، حيث عرضت الآيات لقصتين تحملان وافر التجربة لهؤلاء الفئام من الناس ، ودلت على مواطن العظة والاعتبار .

والآية التي أعنيها هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

وحرصاً على مشاركة القارئ الكريم في المتابعة ، أسمح لنفسي بأن أذكِّر

بالآية الأولى ، من القصة الأولى وهي قول الله جلَّ وعزَّ : **﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾** . كما أذكر بالآية الأولى من القصة الثانية وهي قوله تبارك وتعالى : **﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾**.

وفي عودة إلى مبتدأ الحديث ، يبدو أنه ما بد من تلمس الحكمة ـ وحكمة الله بالغة ـ وراء التعقيب على قصتي بني إسرائيل بقوله تعالى : **﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و إنك لمن المرسلين ﴾** .

الخطاب في الآية للنبي ﷺ ، وما ينال أمته من الخير بمضمون هذا الخطاب واضح لا مرية فيه . هذه آيات الله ، تلك الآيات الرفيعة المقام في ذاتها ، البعيدة الغايات في هدايتها ، التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذى يعلمه علماء بني إسرائيل .. وترى أن الله تعالى نسب التلاوة إلى نفسه **﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾** فهو سبحانه الذى يتلوها بهذا الحق ، وهو الذي يملك حق تلاوتها وتنزيلها ، و إنك يامحمد لمن المرسلين .

ولعل مما يكشف عن الارتباط الوثيق بين الآية الكريمة ، وبين ما سبقها من تلكم الآيات التي عرضت تينك القصتين من قصص بني إسرائيل ، ما تلهم التلاوة بالحق من معانٍ لعل منها : أن الله تعالى عرض من خلال كلٍ من القصتين ، وما خاض بنو إسرائيل من التجربة ، وإلى أي حد كانوا مع

الحق أو مع الباطل ... عرض بعضاً من خلائقهم وسمات سلوكهم المميزة ، عرضاً يتسم بكمال الإنصاف ، لأنـه من خلال الـواقع ، بحيث تـرى كل جزئية من الجزئيات ـ فضلاً عن الكليات ـ ومعها دليلها . ولم يخل السياق من توجيه المؤمنين إلى مواطن العبرة ، كي يكون لهم من تجربة من سبقهم في مضمار الزمن ، رصيـد يغني طريقهم وهم يشرفون بـالإيمان ، ويحملون عبء الرسالة الخاتمة التي كانوا بها خير أمة أخرجت للناس .

ولقد رأينا بعـد القصة الأولى التي عبَّرت عن محاولة أولئـك الألوف من بني إسرائيـل ، مواجهة القـدر بقلة الأدب مع الله ، فخـرجوا من ديـارهم ، وهم ألوف حـذر الموت ، رأينا أنه بعد عرض القصـة ، جاء الخطاب الإلهي للمؤمنين ، يقودهـم إلى ميادين القتال في سبيله ؛ إذ لا يغني حـذر من قدر ولا ملجأ من الله إلا إليـه فقال تعالى: ﴿ **وقاتلوا في سبيـل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ .

ولما كـانت الخليقـة الغالبـة على بني إسرائيـل ، أنهم يجمعون إلى كـونهم أحرص النـاس على حياة ومن الـذين أشركـوا ، لذا يخافون أشـد الخوف من الموت .. ولما كـانوا يجمعـون إلى ذلك ، شـدة تعلقهم بـالمال والحرص على كسبه مـن حلِّه ومـن غير حلَّه ، تـلا دعوة المؤمنين إلى القتـال في سبيل الله دعوتهم إلى الإنفاق في سبيل الله ، لأن الأرزاق بيد الله كما أن الآجال بيد الله ؛ فإذا كـان الإقدام لا يقـرب أجلاً ، فإن الإنفـاق في سبيل الله قـرض لله عز وجل يضاعفه للمنفق أضعافاً كثيرة . والـدعوة إلى هذا الإنفاق ، حملها قول الله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كـثيرة والله يقبض ويبسـط وإليه ترجعـون** ﴾.

والذي يستوقف الناظر في آي الكتـاب الكريم ، أن هذا الذي نتحدث

عنه بشأن بني إسرائيل ، مما هو بعض من عطاء تلكم الآيات في سورة البقرة بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين ، هو من القرآن المدني ، لأن سورة البقرة ـ وهي أطول سور القرآن ـ سورة مدنية ، ومعنى ذلك أن الآيات ، كانت تتنزل بالكشف عن خلائق بني إسرائيل في طابعهم السلوكي ، وموقفهم من الحق الذي نزلت به رسالة السماء ، والمسلمون يجاورون اليهود ، ويتبادلون معهم حالات السلم والحرب كما بين رسول الله ﷺ في الوثيقة التي كتبها لضبط علاقة المسلمين بهم عندما جاء المدينة مهاجراً في سبيل الله .

أليس لذلك من مغزىً ، يجب أن يكون الضياء على دروب شائكة طويلة، في علاقة أمتنا بهؤلاء الأناسي الذين امتحنت بهم البشرية وعانى منهم المسلمون منذ أطلت شمس الإسلام على جزيرة العرب ؟! ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ..

من صور العدل الرباني فيهم

أسعدتنا من قريب صحبة الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة التي جاءت عقب الآيات التي عرضت لقصة أولئك القوم من بني إسرائيل ، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ثم كان من فعل الله بهم ما كان ... وقصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، وكان من مراحل التجربة والنتائج بعد ذلك ما كان .

والآية التي نعنيها هي قول الله تبارك وتعالى :﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و إنك لمن المرسلين** ﴾ .

وقد وقَفَنا النظر في الآية الكريمة على بعض من قبسات الضياء التي تنمُّ عن مناسبة الآية لما قبلها ، وعن الارتباط الوثيق بين مدلولها وبين تلكم الآيات التي عرضت للقصتين ، وكشفت عما كشفت من سمات بني إسرائيل وخلائقهم في مواجهة قضايا الإيمان والحق ، وما هو بسبيل ذلك من الأخلاق ، ومنهج السلوك .

ونحن الآن على موعد مع قبس آخر من ضياء هذه الآية الكريمة ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ ما يشعر بأن العدل الإلهي موجود أبداً وراء كل كلمة من كلمات الله بشأن عباد الله ، ومنهم بنو إسرائيل ، الذين يظهر من خلال الحديث عنهم في القرآن الكريم ، أن الله لا يظلمهم مثقال ذرة ، وأنه لا يبخسهم شيئاً لهم ، موجوداً على الحقيقة ، فلا محاباة ، ولا ظلم ، ولا تحيُّز ، ولا حيف، فهو يذكرهم بما فيهم إن خيراً

فخير ، وإن شراً فشر ..

ولكن هؤلاء الفئام من البشر درجوا على مقـابلة الإحسان بالإساءة ، وعلى الوقوف من الحق وأهله موقف العناد والأذى والافتراء ، وإن أوقعهم ذلك في خيانة العهود ونقض المواثيق ، بـل والاعتداء حتى على الأنبياء ممتداً ، ذلك إلى القتل في بعض الأحيان !!

ها هم ــ كما دل الكتاب العزيز ـ قـد تفضل الله عليهم بالآيـات الدالة على قدرته وان الآجال والأرزاق بيده ، وأراهـم الحجج القاطعة والدلالات الدامغة ، ولكن المحور العام في سلوكهم ، أنهم لا يقومون بشكر ما أنعم الله عليهم في دينهم ودنياهم .

وننظر في الكلمات النـورانية لنرى أن الآيـة الأخيرة من الآيـات المتعلقة بالقضية الأولى ، ختمت بقـوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثر النـاس لا يشكرون** ﴾ وهذا منتهى العدل الرباني إذ لم يقل هنا ــ وهو العليم بعباده ـ ولكن الناس لا يشكرون ، بل أعطى الحكم على الأكثـر ، فجاء التعبير على هذه الصورة ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾ وإذن فهنالك قلة تشكر ، لم يظلمها الله ، بل كان مـن عدله المطلق ، ما جـاء في دلالة كلامه في شـأنها ، وهو الحكيم الخبير .

ونتابع الرحلـة المباركة ، لنرى صورة أخرى من صـور العدل الرباني في الحديث عن أولئـك الملأ من بني إسرائيل ، وما حصل لهم مـع نبيهم الذى طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ـ كما سبق ذكر ذلك ـ نعم: نرى هذه الصورة فيما دل عليه قوله تعالى : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾.

أرأيت ؟ ﴿ **تولوا إلا قليلاً منهم** ﴾ ، إنه لما كتب على المتحدَّث عنهم من بني إسرائيل القتال ، خان أكثرهم العهد ، ونكصوا على أعقابهم ، وتولوا وهم معرضون ناكلون عن الجهاد ولم يثبت منهم إلا القليل .

والذي دلنا على أن الأكثر هم الذين وقفوا هذا الموقف المخزي ، وأن القليل منهم ظلوا على العهد قوله تعالى : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ . إنه العدل المطلق الذى لا يحابي - كما أسلفنا - ولا يحيف ، ولكن هؤلاء الأناسي لا يزيدهم الإحسان إلا ضلالاً ورغبة في المكر والأذى ، وخيانة العهود والمواثيق .

وماذا بعد ذلك : إنه لا يطول بنا المسير ، حتى نقع على صورة ثالثة في الآيات التي نحن بصددها من العدل الرباني الذى نومئ إليه ، ذلكم ما نجده في قول الله الذي لا تخفى عليه خافية : ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

إن أولئك القلة الذين ثبتوا على العهد في إرادة القتال ، لم يثبتوا جميعاً للاختبار في أمر الشرب من النهر ، فمع الإنذار الشديد من طالوت ، ذلك الإنذار الذى نجده في قوله تعالى : ﴿ **فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني** ﴾ مع هذا الإنذار ، لم يَقْوَ على عدم الشرب إلا القليل ، أعلمنا هذا بعد قرون وقرون كلام الله ، والله جل شأنه لا يظلم مثقال ذرة .. أجل أعلمَناه قوله سبحانه : ﴿ **فشربوا منه إلا قليلاً منهم** ﴾ وما من ريب

في أن مقتضى العدل الإلهي، أن يعطى كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص. وهكذا أعطي هؤلاء القلة حقهم ، فذكروا بوقفتهم الإيمانية في مواجهة الاختبار الشاق الذي طلب فيه الاستعلاء في تلك البرهة من الزمن على الحاجة بل والضرورة ، وجاء الاستثناء الذي نرى : ﴿ **فشربوا منه إلا قليلاً منهم** ﴾ الكل شربوا إلا هذه الفئة القليلة ، ونظراً لضآلة العدد الذي ظل على العهد وصبر على الامتحان وثبت له ، خاف هؤلاء على أنفسهم، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فكان من تذكير العلماء العاملين إياهم ــ وما أقلهم ــ ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾.

هكذا تبدو هذه الوقائع التي قدمتها الآيات الكريمة ، جديرة أن تزيد المؤمن ـ وهو يتلو كتاب الله ـ يقيناً على يقين بالعدل الرباني، عدل الخالق الحكيم الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

ومن هنا نجد في الآيات التي نددت بخصال اليهود الذميمة ـ وما أكثرها ـ ، أو ذكرت شيئاً مما عوقبوا به ، أن بيان السبب في ذلك ، كان مصاحباً للذم والعقوبة . **وذلك ما يجعلنا على حق اليقين ، بأن ما حكم به على اليهود في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، هو منتهى العدل الإلهي ، ناهيك عما فيه من العظة والدعوة إلى الاعتبار ، ولا يظلم ربك أحداً، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين .**

هل إلى مقارنة من سبيل !!

كان من الخير أن نصحب الآيـة الثانية والخمسين بعد المائتين مـن سورة البقرة وهي قـوله تعالى : ﴿ **تلك آيـات الله نتلوهـا عليك بـالحق و إنك لمن المرسلين** ﴾ . وكان مما استلهمناه من عطائها ، في إطار العلاقة بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل : أن هؤلاء الأناسي لم يظلمهم الله فيما قـال عنهم ، مثقـال ذرة ، وأن الكلمـة القـرآنية تنطـق بما لهم وعليهـم دونما حيف أو محاباة : فإن استقاموا على الطريقة ـ وما أقل ذلك فيهم ـ رأيت الثناء عليهم وذكرهـم بما كان من الطـاعة والإحسان . وإذا شاقوا الله ورسله وكان شعارهـم﴿**سمعنا وعصينا** ﴾ جاء الذم والكشف عن مثالب الانحراف والدعوة إلى استئناف الطريق . وتحذير المسلمين ــ في الغالب ـ من الانزلاق فيما انزلقوا فيه .

والحق أن صور العـدل الإلهي بشأنهم متعـددة في القرآن الكـريم ، رأينـا بعضاً منها فيما سبق .

وفي الطريـق إلى عرض ما كان مـن العدل عند المخـالفة ، نستذكر قـوله تعالى في الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بـالحق وبه يعدلون** ﴾ فذكر الله هـذه الجماعة بما فيها ، ولم يبخسها شيئاً ، كما نذكّر بقوله جلَّ شأنه في الآية الرابعة والعشرين من سورة السجدة ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ فهل هنالك عدل وراء هذا العدل !!

إنها المقولة التي تؤكد ـ كما أسلفت غير مرة ـ أنه كان من العدل أيضاً ما ذكروا به من السوء ، حين أساؤوا وظلموا وخالفوا عن أمر الله، ولم يدعوا سبيلاً من سبل المعاداة لله ولرسله ولعباده الصالحين ، إلا سلكوه .

وليس قليلاً ، ما نرى من النماذج التي يبدو فيها الأمران من الثناء والذم متجاورين، وكل منهما مرتبط بسببه أوثق ارتباط . ففي سورة الأعراف نفسها وبعد قوله تعالى : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ نقرأ قوله جل شأنه في الآية الستين بعد المائة ـ والكلام على بني إسرائيل ـ ﴿**وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ لقد أنعم الله عليهم بهذه النعم كلها ، ورزقهم من الطيبات ولكنهم ظلموا بالمخالفة والعصيان ، فكان ذلك ظلماً لأنفسهم يورثهم المساءة في الدنيا ويوم الدين ﴿ **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾. لقد خالفوا وكفروا ، فكان هذا الظلم الشديد لأنفسهم ، مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات . أجل حصل منهم ذلك ، وكان المفترض أن يشكروا تلك النعم ، وأن يقطع شكُهم بما رأوا بأم أعينهم من تلك الدلائل الباهرات التي تولد اليقين عند المنصفين ، ولكنهم بدل ذلك ، ازدادوا تعنتاً وإصراراً على المخالفة والجحود .

ومن هنا تبين ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ فضيلة أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم على جميع أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته ، ومنها عام تبوك في ذلك القيظ والحر

الشديد والجهد ، لم يسألوا خرْق عادة ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ . ولكن لما أجهـدهم الجوع سألوه تكثير طعـامهم ، فجمعوا ما معهم ، فجاء قـدرَ مبرك الشاة ، فدعا الله فيه ، وأمرهـم فملؤوا كل وعاء معهـم . وكذلـك لما احتاجـوا إلى الماء ، سـأل الله تعالى فجـاءتهم سحابـة فأمطرتهم فشربـوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم . ثم نظـروا فإذا هي لم تجاوز العسكر ، قـال ابن كثير رحمه الله : فهذا هـو الأكمل في اتبـاع الشيء ، مع قدر الله ، مع متابعة الرسول ﷺ .

وهذا الذي نشير إليه بشأن الطعام والماء ، جاءت به النصوص الصحيحة والحمدلله . فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (لما كان يوم غزوة تبوك أصاب النـاس مجاعة ، فقالوا : يارسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا ؟ فقال رسول لله ﷺ : افعلوا فجاء عمر فقال : يارسول الله إن فعلت قلَّ الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهـم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة ، فقال رسول الله ﷺ : نعم . فدعـا بنطع منبسطة ثم دعـا بفضل أزوادهم ، فجعل الـرجل يجيء بكـف ذرة ، ويجيء الآخـر بكـف من التمـر ويجيء الآخـر بكسرة ؛ حتـى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، فدعا رسول الله بالبركة ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم ، فـأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركـوا في المعسكر وعاء إلا ملؤوها ، وأكلوا حتى شبعوا وفضلـت فضْلةٌ فقال رسول الله ﷺ : أشهد أن لا إلـه إلا الله و أني رسول الله لا يلقـى اللهَ بها عبدٌ غير شـاكٍّ فيحجب عـن الجنة) . ورواه مسلم عـن أبي كريب عن الأعمش ، ورواه أحمد مـن حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ولم يذكر غزوة تبوك بل قال : في غزوة غزاها .

وأخرج عبدالله بن وهـب عن ابن عباس أنه قيل لعمـر بن الخطاب رضي

الله عنه : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً ، وأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى أن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرجل ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يارسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا فقال : (أو تحب ذلك قال : نعم ، قال : فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعها حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر) .

أين هذا الذي فعله أصحاب النبي ﷺ وهم في ساعة العسرة ، يلفهم هذا الجهد الجاهد ، والمشقة المضنية ، والعسر الذى لا يكاد يدانيه عسر ، حيث أخذوا بالأسباب وسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام الدعاء ، دون تعنت أو ضجر أو طلب معجزة مادية...؟

أين هذا مما صنعه بنو إسرائيل من تعنت ، وسخط ، ونكران للنعمة ، وتمحل في طلب المعجزة ، وإصرار على الجحود بعد ظهورها ؟ .

صلى الله على الرحمة المهداة ، سيدنا محمد بن عبد الله ، ورضي الله عن أصحابه الكرام ، الذين آمنوا به صادقين . واتبعوا النور الذي أنزل معه مجاهدين مخلصين ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

التطلع إلى عبادة الأوثان

ـ ١ ـ

الرسالة التي أنيط بأمة الإسلام أداؤها في العالمين ، هداية إلى الخير ، وسيراً بالإنسان إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة .. هذه الرسالة ، وتنوُّع الميادين التي يفترض أن تخوضها من أجل ذلك على صعيد الأمكنة والأزمنة والشعوب ، وما يمكن أن يحفل به الطريق من عقبات يصنعها أهل الجهالة والضلالة .. كل أولئك ، كان من شأنه ـ والله أعلم ـ أن تكوَّن أجيال هذه الأمة ، بدءاً من الجيل الأول ، على التبصُّر بالحقائق التي تجعلها على بصيرة من أمرها فيما يُطلب إليها عملُه ، كيما يكون العمل مسبوقاً بما يمهد لانتظامه ، وربط الأسباب فيه بالمسبَّبات ، والمقدمات بالنتائج .. وذلك من طريق المعرفة والاقتناع بما هو حق وما هو باطل ، والإحاطة بما تنبغي الإحاطة به من مسالك الأمم والشعوب، وبخاصة ما كان من شأن بني إسرائيل ، الذين امتحنت بهم البشرية وما تزال تمتحن .

وشاء الله ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يكون التعريف بهؤلاء الناس ، وذكر قصصهم مع أنبيائهم ومع غيرهم من الناس ، وبيان مواقفهم من الحق الذى جاءت به الرسل ، والسمات التي تميز بها سلوكهم .. شاء الله جلت حكمته أن يكون ذلك مصاحباً للخطوات الأولى على طريق الدعوة ؛ فقد شغل اليهود وبنو إسرائيل حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ـ بدءاً من العهد المكي ـ مع أن المسلمين لم يكونوا على مجاورة لهم أو معايشة في هذا العهد ،

ولكن كان ذلـك في العهد المدني .. وأنت ترى أنه ورد ذكرهـم بإسهاب أو اقتضاب ، تصريحاً أو تلميحـاً ، مع ربط مـا كان يحصـل لهم بأسبابـه التي كسبتها أيـديهم في خمسين سورة من كتاب الله عـز وجل ، والناظـر في كتب السنة والسيرة المطهرة يجد فيضاً من الحديث عنهم أيضاً ، ومن ذكر الوقائع والتحليل للسمات التـي كانت تـوجه سلوكهـم ، وتقفهم حيث وقفـوا من الدعوة ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام والمسلمين .

وهكـذا كان مـن حكمة الله ، تكـوين المسلمين مـن أول الطريـق ، على المعـرفة بها لابـد من معـرفته بهذا الصنـف من البشر . ففـي العهد المكـي ، حيث المسلمون فئة قليلة مستضعفة تعـاني من العقبات الصوارم ، ومحاولة الفتن عـن الدين ، والمتـاعب التي تكـاد لا تنتهي .. في هذا العهـد ، نجد القرآن الكريم يتنزل بالحديث عن اليهود وبني إسرائيل ، ويعرض بمنتهى الدقة والموضوعية ، لقصصهم قبل البعثـة المحمدية ، من لدن وجودهم في مصر ، وبعثـة موسـى عليـه السلام وبعـدهـا ، كما يشير بـالتصريح حينـاً وبـالتلميح حينـاً آخر إلى مـواقفهم مـن دين الله ، ورسلـه عليهم الصـلاة والسلام ، وموقف بعضهم من الدعوة الإسـلامية في العهد الذى نذكِّر به، وهو العهـد المكي ومـا كان مـن جنوحهـم عن الحق الـذى نزل بـه القرآن ، وتأييدهم للوثنية والوثنيين .. هذا بالإضافة إلى الآيات التي تحمل إشارات مطلقة ، يدخلون في نطاقها عند ذكر أهل الكتاب عموماً ومواقفهم من هذه الدعوة .

ها إنك تقرأ في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة قـول الله جل ذكره : ﴿ **وجاوزنا ببنـي إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم**

آلهةٌ ، قال : إنكـم قوم تجهلـون . إن هؤلاء متبرٌّ ما هـم فيه وباطـل ما كـانوا يعملـون . قـال أغير الله أبغيكـم إلهاً وهـو فضَّلكـم على العـالمين . وإذ أنجينـاكـم مـن آل فرعـون يسـومـونكـم سـوء العذاب يقتِّلـون أبنـاءكـم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾.

لقد كان بنو إسرائيل يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية الرعناء عند فرعون وملئه ، فيقتَّـل أبناؤهم ، وتُستحيى نساؤهم ، فـأنقذهم الله على يدي نبيهم وزعيمهم مـوسى عليه السلام ، وكـان ذلك الإنقاذ باسـم الله الواحد رب العا لمين ، الـذي لا رب غيره ولا معبود بحـق سواه ، وشـق لهم البحر ، وأخرجهم من ذلـك البلاء العظيم الذى كانوا يسـامون . وكان المفروض أن يكون لهم في ذلك درس يزيدهم إيما ناً بعقيـدة التوحيد ، ويعمق في نفوسهـم أن لا إله إلا الله ، وأن عبادة غيره كفر وضلال مبين ، ولكن ثبت أنهم كانوا على عكس ذلـك ، فما كادوا يقعون على مشهد مـن مشاهد الوثنيـة ، حتى هفت نفـوسهم إلى تلك الـوثنية وعبـادة غير الله ، حصل ذلك منهـم ، كأن شيئاً مما يدعو إلى غيره لم يحدث لهم من قبل .

ها هي ذي كلمات القرآن تكشف عن صنيعهم هذا بأجلى صورة وأوضح بيان ، ذلكم قول الله تعالى في الآية التي أثبتناها من قريب وهي الآية الثامنة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون** ﴾ .

فحين أنقـذهم الله ، وتجاوزوا البحـر بعـد أن رأوا مـن آيات الله وعظيـم سلطـانه وقـدرتـه التي لا تُحَدُّ مـا رأوا ، وقعـت أبصـارهم على قـوم وثنيين عاكفين على أصنـام لهم يعبدونها ويقدسونها ، قيـل : كانوا مـن الكنعانيين

وقيل : كانوا من لخم . بدل أن يستنكروا هذا الذى رأوا ـ على الأقل ـ طلبوا من رسول رب العالمين موسى عليه السلام الذى أخرجهم ــ باسم الإسلام لله وتوحيده ــ من الأرض التي أصابهم فيها ما أصابهم من البلاء والأذى .. طلبوا من موسى أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد ﴿ **قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ .

ولم يكن عجباً من العجب ، أن يغضب موسى لله ، ويغار على ألوهيته أن يُشرك بها قومه بعد تلك الحقبة الطويلة من الصراع بين التوحيد و الوثنية .. لم يكن عجباً أن يغضب موسى فيقول لهم : إنكم قوم تجهلون .

و نتابع في الصفحات القادمة إن شاء الله ، دلالة هذا الموقف من بني إسرائيل ، وبيان القرآن الكريم في شأنه . وكم في مثل هذه المواقف من هؤلاء عَبر التاريخ من دروس وعبر ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

التطلع إلى عبادة الأوثان

ـ ٢ ـ

في إشارة إلى أن الكلام على بني إسرائيل واليهود ، شغل في كتاب الله مكيه ومدنيه حيزاً متسعاً ، ألمحت إلى أن حديث القرآن عن بني إسرائيل في العهد المكي ـ والمسلمون ما يزالون قلة مستضعفة مستهدفة للفتنة والأذى ـ ذو دلالة عميقة ، تقف الأمة الإسلامية على ما يُعيُره القرآن من أهمية بالغة لتكوين المسلمين ، ـ بدءاً من أول الطريق ـ على المعرفة التي يستجلون من خلالها سمات الأمم والشعوب ، وحكمة الله في مصائرهم عطاءً أو منعاً نصراً أو خذلاناً .. وبخاصة ما كان من أمر بني إسرائيل، والتجارب التي مروا بها . وما أثمرت تقلباتهم الضالة على صعيد الفرد والمجتمع ، وما أعقبت من نتائج عبر التاريخ .. وما تزال .

وكان أول ما أردنا الوقوف عنده مما نزل من القرآن المكي في شأنهم: آيات من سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة . والآيات التي نعني ، هي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكُفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبَّر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين . وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ .

وقد وقفتنا الآية الأولى على الموقف المخزي الذي وقفه هؤلاء النفر من بني إسرائيل ، حين لم ينتفعوا بذلك التاريخ الذي قارب ربع قرن من الزمان ، من الصراع بين وثنية فرعون ودعواه الألوهية ، وبين كلمة التوحيد التي جاءهم بها من عند الله نبيهم موسى عليه السلام ، لم ينتفعوا بذلك ولا بما رأوا من الآيات الباهرات، قاطعة الدلالة على أن التوحيد هو الحق ، وأن ما دونه هو الباطل ، والتي كان منها إنقاذهم من ظلم فرعون وعسفه باسم الله الواحد رب العالمين ، وإنزال العقوبة الإلهية الصارمة بأعدائهم .. أجل لم ينتفعوا بشيء من ذلك ، وراحوا يستشرفون عبادة الأوثان ؛ فحينما جاوزوا البحر ، وقعت أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويقدسونها ، فتحركت في نفوسهم نوازع الانحراف والعماية ، فلم يستحيوا أن يطلبوا من موسى عليه السلام ، أن يجعل لهم ، كما لهؤلاء الوثنيين آلهة ، وأدرك موسى ما يعنيه ذلك من الجهالة والران على القلوب ، فقال لهم: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾.

أرأيت إلى رواسب الانحراف العريق في نفوسهم ، إن كل ما وقع لهم من البلاء ، ينزله بهم من يدعي الألوهية ، فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وهو فرعون ـ ما علمت لكم من إله غيري ـ يعينه على ذلك مَلؤه وأشياعه الضالون . وما وقع من الإنقاذ باسم التوحيد ، والتبرؤ من الأنداد والأضداد بعد ذلك .. وما ظهر خلال هذا كله من الآيات والعظات .. كل أولئك لم يحل دون بني إسرائيل ، ودون أن يتطلعوا إلى وثن يتخذونه إلهاً يعبدونه .. وإنه لأمر في غاية السوء ، أن يقع منهم ذلك.. ولكن الأسوأ منه ، والذي هو غاية الشناعة والانحراف: أن يطلبوا ما طلبوه من موسى عليه السلام .. موسى الذي أنقذهم ـ بعون الله وتأييده ـ من الوثنية التي شاءها فرعون حين أراد إجبارهم على اتخاذه إلهاً وعبادته واستذلهم بتلك الوثنية ، حتى إن

الملأ من قومه ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم : ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ ثم ما ذا وراء هذا المطلب الموغل في الضلال المبين؟

إنهم لم يتخذوا بأنفسهم وثناً يعبدونه ، ولكنهم تجاوزوا الحدود ، إلى أن يطلبوا ذلك من نبيهم الذى يوحى إليه بأن لا إله إلا الله .

ولكن لابدع ، فهم بنو إسرائيل ؛ وكأن الله تعالى أراد بحكمته البالغة أن يضع هذه الحقيقة عن اليهود أمام المسلمين بصورة مبكرة من عمر الدعوة ، في رحلتهم الطويلة عبر تاريخ الإنسان ، كيما يكونوا على المحجة البيضاء ، وهم يخوضون معركة البقاء بين الوثنية والتوحيد .

وفي هذه الواقعة، إشارة إلى أنه إذا فسدت الطوية ، وأظلمت القلوب وتبلد الحس ، استوى طول التجربة وقصرها ؛ فهؤلاء الأناسي ما كادوا يخرجون من البحر ، ويبصرون أولئك العاكفين على أصنامهم يعبدونها ، حتى تحركت في أعماقهم نوازع الجهالة الجهلاء ، وطلبوا ما طلبوا من موسى عليه السلام ، ناسين ـ لا أذكرهم الله ـ ما تعلموا خلال عشرين عاماً أو تزيد ، منذ جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد ، فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً ، منذ أن واجه فرعون وأشياعه برسالته ، إلى يوم الخروج من مصر ، مجتازاً ببني إسرائيل البحر ، بل نسوا ـ لا أذكرهم الله ـ معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين ، كما أخبرعن ذلك القرآن الكريم .

وتضعنا الكلمة القرآنية أمام الموقف الذي كان من موسى عليه السلام . لقد غضب من مقالة السوء التي نطقت بها ألسنتهم ، غضب لربه جل وعلا، وغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ، فكان أن قال لهم تلكم الكلمة

المعبرة التي تليق بطلبهم العجيب قال: ﴿ إنكم قوم تجهلون﴾ولم يحدد ماذا يجهلون. ذلك ليكون في اللفظ ـ والله أعلم ـ إطلاق يكون معه أكثر شمولاً . إنهم يجهلون : من الجهالة ضد المعرفة والعلم ، وإنهم يجهلون: يقعون في الحماقة التي هي ضد العقل ، فما كان لقالة السوء التي قالوها أن تنبعث إلا من الغارقين في الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود ، ذلك لأن الانحراف عن طريق التوحيد إلى الشرك وليدُ الجهل والحماقة .

أما العلم والتعقل : فكلاهما يعود ـ إذا صدقت الوجهة ـ إلى الله الواحد الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، فما من علم ولا عقل بالمعنى الصحيح بعيداً عن سلطان الهوى ـ يقود إلى غير هذه الطريق، لأن كل مسلك يجافي طريق التوحيد ، لا يعدو أن يكون إعلاناً عن انحراف صاحبه ، مجافياً للفطرة ، مخالفاً ما يقتضيه العقل السليم القائم بوظيفةالتنوُّر والتفكر بآلاء الله في النفس وفي الكون﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ﴾ والحمد لله الذي أتم علينا النعمة بالإسلام ، ونسأله جل شأنه الثبات على الحق الذي نزل به الكتاب . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الخير في التوحيد الخالص

كان فيما حملت إلينا سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ــ من هداية في الكشف عن بعض من خصائص اليهود النفسية ، وسمات الانحراف الأصيلة فيهم ، تلك الآية الكريمة التي تحكي تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله ، يعكفون عليه ويقدسونه رغم ما رأوا من الآيات الدالة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، ورغم كونهم أُنقذوا من ظلم فرعون وشيعته باسم توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية وتنزيهه عن الشريك والمثيل ، وقد أشرت من قبل إلى عمق الدلالة في قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام خطاباً للقوم : ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ عندما طلبوا هذا المطلب المخزي ـ وكلُ ما هم فيه مع عدوهم، وما غمرهم من الآيات والعظات ، يوجب مزيد اليقين بوحدانية الله ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ .

لقد كشف تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله ، أنهم ما يزالون بعد تلك الأعوام الطويلة غارقين في الجهل والعماية ، لم تستنر قلوبهم بكلمة التوحيد على الوجه الذي ينبغي ، ولا حركت عقولهم وقائع ما جرى من صراع بين الكلمة الطيبة لا إله إلا الله ، وبين الشرك ، في معركة قادها نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام ، في مواجهة مدعي الألوهية فرعون .. أجل إنهم قوم يجهلون .

والواقع أن موسى عليه السلام لم يكتف بقوله : « إنكم قوم تجلهون » ولكنه حاول أن يزيل الغشاوة عن العيون ، ويبين لبني إسرائيل أن هؤلاء الذين يعكفون على أصنام لهم ، والذين تطلعتم إلى تقليدهم فطلبتم أن أجعل لكم إلهاً كما لهم آلهة ... هؤلاء قوم ينتظرهم سوء العاقبة وبئس

المصير، ذلكم قوله تعالى في أعقاب الآية السابقة: ﴿ **إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ إن ما هم فيه من شرك وعكوف على أصنام يتخذونها آلهة من دون الله الواحد سبحانه ، وحياة تقوم على هذا الانحراف عن الفطرة ، والمجافاة للعقل السليم .. إن هذا كله متبر هالك باطل ، اعتقاداً كان ، أو عملاً وسلوكاً ؛ فكيف تستشرفون ـ وقد أنعم الله عليكم بالتوحيد ـ تقليد قوم يسرحون ويمرحون في الضلالة ، وما هم فيه هالك باطل لا يعقب إلا السوء والعذاب المهين في الآخرة ، ولا ينتهي إلا إلى ما ينتهي إليه الباطل من هلاك ودمار .

وهذا الذي حكاه القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام ردّاً على ما كان من بني إسرائيل ﴿ **إنكم قوم تجهلون** ﴾ ﴿ إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانون يعملون ﴾ يحمل في طياته ـ وهو من القرآن المكي أي في فترة مبكرة من عمر الدعوة ـ تحذيراً لهذه الأمة أن تقع فيما وقع فيه أولئك الجهلة الوالغون في العماية وسوء التفكير ، من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يحول دون المسلمين ودون أي تصرف يشبه من قريب أو من بعيد ما حصل من بني إسرائيل ، أو يمكن أن يوصل إليه ، أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره للآية عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه ، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سِدرة يعكفون عندها ، ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : (ذات أنواط) قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال: فقلنا : يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط ، قال : قلتم والذي نفسي بيده ، ما قال قوم موسى : ﴿ **اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ إنها السَّنَن « لتركبن سنن من كان قبلكم » . وفي بعض

الروايات مـا يدل على أن أبا واقد رضي الله عنـه ، هو الذي طلب ذلـك من رسول الله ﷺ ، فقد روى الإمـام أحمد عن أبي واقد الليثي قال : خـرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلـت : يانبي الله اجعل لنا ذات أنـواط كما للكفار ذات أنـواط ، وكان الكفـار ينـوطون سـلاحهم بسـدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هـذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سنن من كان قبلكم » .

وأنت واجد هنا أن النبي ﷺ استعظم ما طلب منه ، وأراد حسم الموقف من أول الطريق ، سداً للذريعة ولكيلا يسلك المسلمون سبيلاً تصل بهم إلى الهوة التي وقع فيهـا بنو إسرائيل .. إذ قال صلوات الله وسـلامه عليه : (الله أكبر هـذا كما قالـت بنـو إسرائيل لموسـى اجعـل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكـم تركبون سنن من كان قبلكم) والسنَنَ بفتحيتن : نهج الطريق .

ولعل من الخير أن أشير إلى أن الذين قالوا مـا قالوا لرسول الله ﷺ ، كانوا حديثي عهد بكفر ، فكأنهم ما كانوا يتصورون أن في الأمر ما ينافي التوحيد ، ولكن الـرسول عليه الصـلاة والسلام ـ كما أسلفـت ـ خاف أن يكـون ذلك عنوان انحـراف عن الصراط السوي ، ونبَّه بحـزم إلى عدم الوقـوع في تقليد جهالة بني إسرائيل ، حين قالوا لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . فقد روى أبوداود الطيالسي في سنـده عن أبي واقد اللثيي قال : كنـا مع رسول الله ﷺ بحنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر ـ فمررنا على شجرة يضع المشركون عليها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط ، فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : الله أكبر قلتـم كما قال أهل الكتاب لموسـى عليه السلام : اجعل لنـا إلهاً كما لهم آلهة ثم قال رسول الله ﷺ « إنكـم ستركبون سنن مـن كان قبلكم » ورواية ابـن إسحاق في السيرة تؤكد مـا قلناه لأنها

نصّت أيضاً على قول أبي واقد : (ونحن حديثو عهد بكفر) .

وهكذا نرى أن أمتنا مدعوة أبداً إلى أن يكون لها وجودها الذاتي النابع من عقيدة التوحيد ، فلا يصيبها ما أصاب أولئـك الذين تطلعوا ـ وهم يدَّعون التوحيـد ـ إلى اتخاذ إلـه يعبدونه مـن دون الله فقال لهم مـوسى : إنكـم قوم تجهلون فالخير كل الخير في التوحيد الخالـص ، وإقامة الحياة الإسلامية على أساس منه ، وشتان بين الظلمات والنـور . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

مقابلة النعم بالجحود

- ١ -

مرة أخرى نعود إلى متابعة العطاء في تلكم الآيات المكية من سورة الأعراف ، حيث الكلام على بني إسرائيل في قالة السوء التي قالوها لموسى ، بعد أن خرجوا من البحر وما كان من جواب موسى عليه السلام من قوله كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ **إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطل ما كانون يعملون**﴾ وكانت لنا في صفحة سابقة وقفة عند بعض من عطاء تلكم الكلمات المباركات . غير أن القرآن الكريم كشف لنا عن أن موسى عليه السلام لم يقتصر على هذا الذي رأينا ، ولكنه قال شيئاً آخر ، ألا ترى إلى ما جاء في أعقاب الآيتين المومى إليهما من قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام : ﴿ **أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ .

لقد فضلهم الله على العالمين في زمانهم ، بأن اختارهم لحمل رسالة التوحيد، وذلك فضل عظيم من الله لا يدانيه فضل ، ومنة كبرى لا تعدلها منة ... وبدلاً من الشكر على ما منَّ الله به عليهم وتفضَّل ، يطلبون إلى نبيهم الذي تقوم رسالته على التوحيد ، أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وهم مغمورون بنعمته وفضله ولا تعوز حياتهم آية من الآيات التي تدل أوضح دلالة ، وأبلغها على أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه .

وجميل ما ذهب إليه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ، من أن ذلك

كان منهم جهلاً أيَّ جهل ، فكان قـول موسى عليه السلام : ﴿ **إنكم قوم تجهلون**﴾ فيه شيء من الإجمال ، فجاءت الآية بما يدل على أن صنيعهم جهل وجهالة قال رحمه الله في تفسير الآية : (يقول تعالى ذكره : قال موسى لقومه : أسِوى الله ألتمسُكم إلهاً وأجعل لكم معبوداً تعبدونه، والله الذي هو خالقكم فضَّلكم على عالَمي دهركم وزمانكم ؟ يقول : أفأبغيكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه ، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق ؟ إن هذا منكم لجهل) .

وتنتقل بنا الآيات إلى قول الله جل وعز : ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبنـاءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ وقد جاءت هذه النقلة فكـان الخطاب من الله لهم بقوله ﴿**وإذ أنجيناكم ..**﴾ على طريقة القرآن الكريم ـ كما يقول صاحب الظلال رحمه الله ـ في وصـل ما يحكيه عن أوليـاء الله ، بما يحكيه عن الله سبحـانه ، إذ يستطرد السياق ـــ كما نرى ـ بخطاب مـن الله تعالى موصولٍ بكـلام موسى عليه السلام موجه كذلك لقومـه . ولا يخفى ما في مثل هذا الوصل في كتاب الله الكريم بين كلام الله جل شأنه وما يحكيـه من كلام أوليائه ، من التكريم والإشعار بما لهم من منزلة عنده سبحانه .

وهكذا نقرأ قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام : ﴿ **قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾ ونقرأ عقب ذلك في الآية التي تلي قوله جل وعلا خطاباً لبني إسرائيل أيضاً :﴿ **وإذ أنجيناكم مـن آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتِّلون أبنـاءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ .

يقول الله تعالى لهم : واذكـروا مع هذا الذي قلتموه لموسـى بعد رؤيتكم

من الآيات والعبر ما رأيتم ، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم ، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم ، من هذا القول المخزي عن التوحيد إلى طلب أن يكون لكم إله تعبدونه من دون الله . اذكروا نعمتي عليكم إذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم سوء العذاب ، أقبح العذاب وأسوأه .

وآل فرعون هم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ، وإنما يعملون ما يعملون بإرادته وموافقته ، بل بأمره . وقد نسب التقتيل والاستحياء إليهم ، لأنهم كانوا يباشرونه بأنفسهم .

هكذا كان أمر فرعون ، بأن يقتل كل ذكر يولد من بني إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وذلك بعد رؤيا رآها ـ كما يقول المفسرون ـ فيها إنذار بزوال ملكه على يد بني إسرائيل . وأمر باستعمالهم في مشاق الأعمال وأرذلها .

وبعد هذا التذكير بما أنعم الله عليهم من النجاة من آل فرعون ، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ البلاء هنا هو النعمة ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وروي عن السدي في قوله : ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ : أما البلاء : فالنعمة ، ومثل ذلك روي عن مجاهد قال : نعمة عظيمة . من أجل ذلك قال الطبري رحمه الله : أما قوله ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ فهو يعني : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم ، على ما وصفت ، بلاء لكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

وإنما فسر البلاء في الآية التي نحن بصددها ، وفي أمثالها من الآيات هذا التفسير ؛ لأن أصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان ، ثم يستعمل في الخير والشر ، لأن الامتحان والاختبار قد يكـون بالخير كما يكون بالشر . كما جـاء في ســورة الأعـراف ﴿ **وبلـوناهـم بالحسنـات والسيئات لعلهـم يرجعون**﴾ وفي سورة الأنبياءنقرأ قوله تعالى: ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ والأكثر في الشر أن يقـال : بلوته أبلـوه بلاءً . وفي الخير : أبليته أُبليـه إبلاءً وبلاءً قال : زهير بن أبي سلمى :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين ، لأنه أراد فأنعـم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده .

هذا : ويفترض للنعمـة أن تذكـر فتشكر، ولكـن اليهود دائما يستبـدلون الذي هـو أدنى بالذي هـو خير . ثبتنا الله بقولـه الثابت ، وعافى أمتنـا من الوقوع في تقليد هؤلاء المغضوب عليهم ، ﴿ ربنـا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

مقابلة النعم بالجحود

ـ ٢ ـ

كفران النعمة والتطلُّع إلى اتخاذ إلـه من دون الله عـز وجل ، مـع توافـر الدواعي الواضحة للشكر والثبات على الإيمان : ظـاهرة من ظواهر السلوك عند اليهود كما عرفنا : ظاهرة دل عليها كتـاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه ، وأكـدتها الوقائع . وقد رأينـا نموذجاً لـذلك فيما قصَّ علينا القرآن المكي في سورة الأعراف عن بني إسرائيل يوم بدَّلوا نعمة الله كفراً ، ولم يبالوا أن يطلبوا من نبيهـم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونـه من دون الله ، معـرضين عما يجب عليهم مـن شكر الله على نعمـة تفضيلهم على أهل زمانهم بالتوحيد ، وإنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ، وإهلاك عدوهم .

وفي متابعة لاستلهـام الكلمة القرآنية الهاديـة في شأن هذه الظاهـرة التي تنمُّ عما يتسم بـه سلوكهم من الإتيـان بالنقيض ، واستبدال الـذي هو أدنى بالـذي هو خير .. أود الإشـارة إلى أن ما أنعـم الله به على بنـي إسرائيل مـن إنقاذهم على يد مـوسى عليه السلام من فرعون وآله وشيعتـه ، حيث كانوا ينزلون بهم الأهوال قد ورد ذكره في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه غير مرة .

ولعل الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن يعي المسلمون ـ ومن ورائهم من يعقل من الناس ـ حقيقة هؤلاء القوم الذيـن نراهم ـ على دعاواهم العريضة في الصلة بالسماء ـ يقابلون نعـم الله بالجحود والكفران ، وبدل أن يزدادوا بما يرون من الآيات البينـات ، إيماناً بوحدانية الله تعالى وقـدرته وسلطانه ، وأن

العبادة لا تجوز إلا له سبحانه .. بدل ذلك ، ينكصون على أعقابهم ، ويستشرفون التمرغ في أوحال الوثنية ، واتخاذ الند والمثيل لله في الطاعة والإذعان .. ولعل من الحكم ـ فيما وراء ذلك ـ أن يكون المسلمون ـ وهم حملة الرسالة الخاتمة ـ على أكمل وجه من وضوح الرؤية في تجنب كل ما يمكن أن يوقع فيما وقع فيه أولئك المبطلون الجاحدون .

هذا : وتعدد المواطن التي ورد فيها التذكير بالإنجاء من فرعون وآله وشيعته ، توبيخاً وتأنيباً لمن يتمرغون في إثم الكفران والجحود من بني إسرائيل ، صحبه ـ في الكتاب المعجز ـ تنوع الصور في الأسلوب ، وفق ما يقتضيه منهج الهداية الرباني ؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف المكية : خطابٌ من الله تعالى لبني إسرائيل أن يذكروا إذ أنجاهم بقدرته ـ سبحانه ـ على يد موسى ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ وننتقل إلى سورة إبراهيم ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ لنرى أن التذكير بالنعم وقع أيضاً من موسى عليه السلام لقومه، ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ فهنا نجده تعالى يخبر عن موسى عليه السلام ، أنه ذكّرَ بني إسرائيل بأيام الله عندهم ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم ؛ فأنقذهم الله تحت عنوان التوحيد الخالص لله من ذلك . وهذه نعمة عظيمة هي من فضل الله وعظيم نعمته . ولهذا قال: ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أي وفي ذلكم نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك ـ كما أشرت في وقفة سبقت ـ وهي نعمة من واجبكم أن تقابلوها بالإذعان

والشكران.

ومن الممكن أن يكـون المقصود بالبلاء — كما يرى بعض المفسريـن ـ ما كان يفعله قوم فرعون ، فيكون التأويل :

(وفيما كان يصنعـه بكم قوم فـرعون من تلـك الأفاعيل بـلاء أي اختبار عظيم) .

على أية حال : يحتمل أن يكون المراد ـ كما يرى الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ هذا وهـذا ، كقوله تعالى في سـورة الأعراف ـ والكلام على بنـي إسرائيل ـ **﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾** .

ولا يقف الأمـر عند القـرآن المكي . ذلكـم ما نقـرأ في سورة البقـرة من التذكير بـالإنجاء من آل فـرعون مع التذكير بنعمـة إغراقهم ، قـال تعالى : **﴿وإذ نجّيناكـم من آل فرعون يسـومونكم سـوء العذاب يذبحون أبنـاءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكـم بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنـا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾** .

ونمضي مع سورة إبراهيم لنقرأ بعد الآية التـي أوردناها قوله جل وعز : **﴿وإذ تأذن ربكـم لئن شكرتـم لأزيدنكم ولئن كفـرتم إن عذابي لشـديد﴾** جاءت هذه الآية الكـريمة بعد التذكير ـ كما رأينا ـ بنعمـة إنجاء الله إياهـم من ظالميهم : فرعون وقومه .

هكذا: وإذ تأذن ربكـم : آذنكم وأعلمكم ربكم بـوعده لكم. أو : آلى ربكم وأقسـم بعزته وجـلاله وكبريائه كما في قـوله تعالى في سـورة الأعراف متوعداً اليهود بسبب ظلمهم وانحرافهم : **﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب ﴾** .

ومضمون ما أعلم الله به أو أقسم عليه في سورة إبراهيم ، والآية التي نحن

بصددها ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ - والله أعلم - لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم منها وأبارك لكم فيها ، ولئن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها باستخدامكم إياها في المجاهرة بعدائي - وأنا المنعم المتفضل - والانحراف عن الصراط السوي ، إن عذابي لشديد ؛ وذلك بالعقاب على هذا الكفران في الدنيا والآخرة .

ثم أعلن موسى في قومه أن الله غني عن شكرهم ، محمود على صنيعه فيهم - وإن كفر من كفر - فإذا شكروا ، فالخير لهم ولا حاجة لله فيه ، وإذا كفروا ، فالشر عائد عليهم لا محالة ، نجد ذلك في قوله تبارك وتعالى بعد الآية السابقة : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ .

موسى عليه السلام - وهو النبي الموحى إليه - يقرر هذه الحقيقة في خطاب لليهود ، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم بإنقاذهم من آل فرعون، بل راحوا يتبعون أهواءهم ، ويطلبون إلهاً يعبدونه من دون الله . هذه الحقيقة هي : أن الله غني عن عباده ، وهو الحميد المحمود على كل حال ، شكر من شكر ، وكفر من كفر . فلو أن من في الأرض جميعاً كفروا النعمة كما كفر اليهود ، فإن ذلك لايغير من تلك الحقيقة شيئاً ، ولذلك جاء التأكيد باللام بعد التأكيد ب(إن) في قوله تعالى : ﴿ فإن الله لغني حميد﴾ .

الحمد لله الذي هدانا للمعرفة الحقة ، ونسأله تعالى أن يفتح القلوب لما جاء في الكتاب والسنة عن المغضوب عليهم اليهود ، كيما يوظف ذلك في معركة متنوعة الميادين الظاهرة والباطنة هنا وهناك ، وهي ميادين قد يطول أمدها .. ويطول ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ..

لا يذكرون أيام الله

أشرت فيما سبق إلى أن واقعة إنجاء الله لبني إسرائيل من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب وألوان الإذلال ، لما أنها قد أعقبت عند اليهود كفرانهم للنعمة ، واستبدالهم الرغبة في اتخاذ إله يعبدونه من دون الله ، قد تكرر ذكرها في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه ، وليس الأمر مقصوراً على سورة الأعراف المكية ، الأمر الذي يؤكد أن ما صنعه هؤلاء البغضاء إلى الله ـ وقد فضلهم الله على أهل زمانهم بكلمة التوحيد ـ هي ظاهرة تعكس ما ينطوي عليه اليهود من رغبة عارمة في الجحود ، وحرص على اتباع الهوى ولو أوقع ذلك في الشرك والعياذ بالله .

وقد رأينا أن من المواطن التي ذكرت فيها تلك الواقعة سورة إبراهيم ، وهي سورة مكية ، ذلكم قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام فيما قال لقومه بشأنها : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد** ﴾ .

وقبل أن نمضي إلى موطن آخر ذكرت فيه الواقعة المشار إليها ، أُراني مسوقاً إلى التذكير بأن موسى عليه السلام ـ في خطابه لقومه بهذا الشأن ـ كان ممتثلاً لأمر الله عز وجل فقد أمر ـ فيما أُمر به ـ أن يذكِّرهم بأيام الله ، ويومُ نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه ، من أيام الله التي كان عليهم أن

يضعوها موضعها من العبرة وفقه الحوادث ، فيستعلن شكر الله فيهم ، ويزدادوا إيماناً بعد الذى رأوا من الآيات التي لا تدع ريبة لمستريب ، في أن الله واحد لا شريك له ولا مثيل ، وأنه القاهر فوق عباده ، ومن ذلك أنه أغرق فرعون وشيعته ، وأنجى بني إسرائيل على يد موسى الذي قامت دعوته فيهم على التوحيد .

ولكن بني إسرائيل كانوا على النقيض من ذلك ، فكشفت النعمة العظيمة , والآيات الكبار ، عن الدخل الذي تنطوي عليه نفوسهم ، فلم يكن منهم بعد ذلك إلا أن استبدلوا السوءى بالحسنى.

والآية التي أمرت موسى عليه السلام بتذكيرهم بأيام الله هي قول الله تعالى في الآية الخامسة من سورة إبراهيم : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكِّرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ ففي هذه الآية الكريمة يقول ربنا جل جلاله : وكما أرسلناك يامحمد وأنزلنا عليك الكتاب لتدعو الناس بدعوة الحق ، وأن تخرجهم من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ﴿ **أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ أي أمرناه قائلين : ادع هؤلاء القوم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ **وذكِّرهم بأيام الله** ﴾ وأيام الله : أياديه ونعمه عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه ودعوة الناس إلى عبادته ، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلْقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم ، روى ذلك الطبري عن مجاهد وقتادة وغير واحد . وهو ما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ قال : « بنعم الله » . ورواه ابن

جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان . وفي رواية عن مجاهد ﴿**وذكرهم بأيام الله**﴾ قال : بالنعم التي أنعم بها عليهم ، أنجاهم من آل فرعون ، وفلق لهم البحر، وظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنَّ والسلوى . أما ابن زيد : فروى عنه ابن جرير أنه قال : أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم ، خوّفهم بها وحذرهم إياها ، وذكرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم .

هذا: وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ إن في الأيام التي سلفت بنعمة الله على بني إسرائيل ، حين أنقذهم الله من يد فرعون وأنجاهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعبراً ومواعظ لكل صبار أي في الضراء ، كما قال قتادة : « نعم العبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر » . وما قاله قتادة قبس مما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كلّه عجب، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ».

وتأولها الطبري رحمه الله فقال : «لآيات» لعبراً ومواعظ « لكل صبار شكور» لكل ذي صبر على طاعة الله، وشكر له على ما أنعم عليه من نعمته .

ومهما يكن من أمر : فإذا تأملنا في قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾ وما سبقه من قوله جل شأنه : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله**﴾ نجد أن الأقوال جميعها مما تحتمله الآية الكريمة ، لأن كلاً من الصبر والشكر مطلوبان ، سيما إذا توافرت الدواعي الملحة ، لأنهما مظهر من مظاهر العبودية الصادقة لله عز وجل . وعلى عكس ذلك تماماً كان سلوك اليهود ، وما يزال ، وما أشبه

الليلة بالبارحة .

وهكذا : نجد في خاتمة المطاف ، أن الآيات الأربع في سورة إبراهيم ، بدءاً من الآية الخامسة ، تقفنا ـ مع مضموناتها العميقة بعيدة المدى في شأن بني إسرائيل ــ على صورة من صور التكامل المعجز بين الآيات في الموضع الواحد ، بحيث يؤدي ـ بجانب عرض الوقائع ـ ما شاء ربنا جل شأنه من الهداية وإنارة السبيل ، ولعل في ذكر الآيات الكريمات كلها جملة واحدة ، ما يعين على إدراك ذلك بصورة أوفى إن شاء الله ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرِج قومك من الظلمات إلى النور وذكِّرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد** ﴾ .

اللهم يوماً من أيامك تردُّ فيه الأمة إلى دينها ، لتأخذه بقوة وصدق ، وتنصرَها على عدوك وعدوها ، نصراً يفرح به المؤمنون ، ويُخزى به المنافقون . لك الحمد في الأولى والآخرة ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين .

(ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى)

قادنا الحديث عن منة الله تعالى على بني إسرائيل بـإنقاذهم من فـرعون وشيعته ، الـذين كانـوا يسومونهم سوء العـذاب ، وما جاء في شـأن ذلك في سورة الأعراف ، وهي من السور المكية ، قـادنا الحديث عن ذلك إلى ما ورد بشأن هذه الواقعة في سورة إبراهيم، ووقفتنا الآيات في السورتين على ظاهرة الكفران والجحـود عند بنـي إسرائيل ورغبتهـم الجامحة دائماً في الخروج على الحق والفضيلة، طاعة للأهواء وانقياداً لتسويلات النفوس المريضة الهابطة .

وتنقلنا الخُطا على هذه الساحة ، إلى سورة مكية أخرى هي سورة (طه) ، لنجد القرآن الكريـم يتحدث عن تلكم النعمة العظيمة ، نعمـة نجاة القوم على يد موسى في عـداد غيرها من النعم، ولكن بعد عـرض سريع وافٍ كلَّ الوفاء لما حصل من خرق العادة لموسى ــ بإذن الله ـ وهلاك فرعون ومن معه ونجاة بني إسرائيل .

والآيات التي نومي إليها في سورة طه ، هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السابعة والسبعين : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسـى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحـر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فـرعون بجنوده فغشيهم من اليمَّ ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى . يابني إسرائيل قد أنجيناكـم من عدوكم وواعـدناكم جانـب الطور الأيمن ونزلنـا عليكم المنَّ والسلوى . كلـوا من طيبات ما رزقنـاكم ولا تطغوا فيه فيحـلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقـد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ .

والملاحظ أنه جاء التذكير بمجموعة من النعم في مقدمتها ما كان من نجاة بني إسرائيل بإذن الله على يد موسى ، وهلاك فرعون وجنوده ، حيث كان موسى ، ومن معه ينظرون إلى الطاغية وإلى جنده قد غرقوا في صيحة واحدة لم ينج منهم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ ، وذكرت هذه النعمة في مقدمة ما ذكر في قوله تعالى ﴿ يابني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ... ﴾ ووليها ما كان من نعمة الله في مواعدة موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون جانب الطور الأيمن ، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، وأعطاه التوراة هنالك ﴿**وواعدناكم جانب الطور الأيمن** ﴾ .

وفي غضون ذلك، عبد بنو إسرائيل العجل ، وهو ما سيأتي ذكره في سورة طه التي نسعد بصحبتها من قوله تعالى : ﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجعُ إليهم قولاً ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ والذي نسي هوالسامري ، إذ ترك ما كان عليه من إسلام الوجه لله عز وجل .

وجاء بعد ذلك التذكير بالنعمة الثالثة ، وهي نعمة إنزال المنِّ والسلوى عليهم ﴿ **ونزلنا عليكم المنَّ والسلوى** ﴾ . ثم جاء الأمر بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله دونما طغيان ولا تجاوز للحدود التي شرعها الله ، وإلا حلَّ عليهم الغضب ، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى . على أن باب التوبة مفتوح لمن كانت توبته نصوحاً وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى . ذلكم قول الله تبارك وتعالى : ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحللْ عليه غضبي فقد هوى** ﴾ .

والواقع أن اليهود لم يدعوا مهواة تتسبب في إنزال غضب الله عليهم ، إلا

انغمسوا في حمأتها ، فحلَّ عليهم غضب الله ، وأصابتهم لعناته جل جلاله ، إلى يوم الدين .

ها نحن أولاء نقرأ في سورة المائدة في شأن هؤلاء المغضوب عليهم ، قول الله تعالى : **﴿ قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل . وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون ﴾** .

وكان من سوء الصنيع ، سكوت الربانين والأحبار فيهم عن ارتكاب هذه الموبقات ؛ وذلك ما كشفت عنه الآية التي تلي وهي قوله تعالى : **﴿لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانون يصنعون ﴾** .

وأنت ترى أن هاتين الآيتين الأخيرتين ، تثبتان أن من جملة موبقاتهم التي تنزلت بسببها لعنات الله على رؤوسهم ، وتسربلوا غضبه ، أن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكل السحت ، والله تعالى يقول لهم بعد أن أنزل عليهم المنَّ والسلوى **﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾** .

لقد طغى القوم ، فحلَّ عليهم غضب الله وهَوَوْا في جحيم الشقاء وكانوا من الخاسرين . ونقرأ في الآية الحادية والستين من سورةالبقرة قول الله سبحانه **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾**. كما نقرأ في سورة آل عمران قوله جل ذكره : **﴿ ضربت عليهم**

الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وإذا كانت هاتان الآيتان من سورة البقرة وآل عمران تنبئان كلتاهما بوضوح أن اليهود باؤوا بغضب من الله : ففي سورة البقرة أيضاً ما هو أشد من ذلك ، وهو أنهم باؤوا بغضب على غضب والعياذ بالله ، ذلكم قول الله جل شأنه : **﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾** .

وفي سورة الممتحنة نُهي المؤمنون أشد النهي عن موالاة اليهود وجاء التعْبير عن ذلك في الآية التي اختتمت بها السورة وهي قول الله جل ذكره : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾** والمقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود ، وفيما علمنا الله تعالى من دعائه في سورة الفاتحة من قوله تباركت أسماؤه : **﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾** المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالون هم النصارى .

ولقد رأينا اقتران الغضب عليهم مع اللعن ، وهو الطرد من رحمة الله في الآية التي أوردناها من سورة المائدة آنفاً ، وفي كتاب الله كثير من المواطن التي ورد فيها لعنهم ، وبعدد من الصيغ .

وأنت ترى أنه كلما ذكرت هذه العقوبة ، اقترن ذكرها بالسبب الذي من أجله كانت تلك العقوبة ، وهذا محض العدل الرباني ، فالله لم يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وما أكثر ما اقترفوا واجترحت أيديهم من ضلالات ، نالهم بسببها الإبعاد والطرد من رحمة الله القادر القاهر ، الرحيم الرحمن .

ففي سورة البقرة يطالعنا قول الله تعالى في شأنهم : ﴿**وقالوا قلوبنا غلفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾ ونقرأ في سورة النساء قوله عز وجل : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾ .

وعلى هذا السنن من ذكر طردهم من رحمة الله ، مع بيان السبب في ذلك ، نقرأ في سورة المائدة قول الله جل وعز : ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ .

ألا ما أكثر العبر التي يفيض بها الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة وبخاصة عند الكلام على هؤلاء الأناسي الذين باؤوا بغضب على غضب ، فهل نحن معتبرون ؟ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .



يستبدلون الكفران بالشكر

كانت رحلة مباركة زاخرة بالكثير من العبر والعظات ، تلك التي سعدنا معها بوقفات عند عدد من الآيات الكريمات في سور مكية هي : الأعراف وإبراهيم وطه . وكان محور الهداية في تلكم الآيات التذكير بما من الله به على بني إسرائيل من النجاة من آل فرعون وشيعته ، الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وإغراق عدوهم وقد تكرر في الآيات ، وهذا ـ والله أعلم ـ من الإعجاز التربوي ـ قوله جل شأنه : ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ .

والحق أن التذكير بالنعم التي يفترض أن تذكر فتشكر ، والتنديد بمواقف أصحابها المجافي للحق ، ولما يجب أن يكون ـ كما يحمل الحكم على صنيع من استبدلوا الجحود والكفران بالشكر الخالص ــ وهم هنا بنو إسرائيل الذين منَّ الله عليهم بجانب النجاة من فرعون وملئه بإغراق الله له ولأشياعه ـ الحق أن هذا التذكير .. كما يحمل الحكم على المخالفين عن أمر الله ورسله بما يستحقون ، يحمل الدعوة إلى الاعتبار والعمل على عدم الوقوع فيما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم .

وموقع أمتنا من هذه الحقيقة يتجلى في أن تلكم الآيات بما تدل عليه من وقائع ، وبما تحمله من مضمونات ، هي من آيات كتابها الكريم الذي أنزله الله على نبيها محمد ﷺ ؛ فالدعوة إلى التنبّه واليقظة والبعد عن كل ما يمت إلى صنيع اليهود بصلة آكد وآكد .. وأهل الخشية يذكرون ، ويعتبرون ذلك من مقتضيات صدق الإيمان وإخلاص العبادة لله عز وجل .

والمتتبع لآي الكتاب الكريم ، يجد أن التذكير بتلكم النعم التي قابلها بنوإسرائيل بالجحود والكفران ، لم يقتصر على الآيات المكية ، كما سبقت الإشارة من قبل ، بل امتد إلى العهد المدني ، حيث خوطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بما أُنعم على آبائهم من قبل ، تذكيراً لهم بنعمة الله تعالى ليؤمنوا بمحمد ﷺ ويكونوا من المسلمين .

ذلكم ما يتلو التالي في سورة البقرة ـ وهي أطول السور المدنية ـ بدءاً من الآية السابعة والأربعين قول الله جل وعز : ﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون. وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ .

والخطاب ـ كما أسلفت من قريب ـ في قوله تعالى ﴿ يابني إسرائيل ﴾ لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر النبي ﷺ ، لأن الطينة واحدة ، والتوجه واحد ، والذين وجدوا منهم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام راضون كل الرضا عما كان عليه آباؤهم من المجافاة للدين ، وإغضاب رب العالمين ، مع أن التذكير بالنعم التي تفضل الله بها على الآباء ، يفترض أن ترتفع بالأبناء ـ أن لو عقلوا ـ إلى مستوى الإيمان الصادق ، والشكر الذي ينعكس على التصرفات والسلوك .

هذا وقد جاء التذكير بعد قوله سبحانه : اذكروا نعمتي التي أنعمت

عليكم ، بواحدة من تلك النعم وهي أنه فضلهم على العالمين فقال: ﴿**وأني فضلتكم على العالمين**﴾ والمقصود أنه فضَّل أسلافهم على عالمي زمانهم ، كما أشرنا في وقفة سبقت . قال الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان) : ويعني بقوله: ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين**﴾ أني فضلت أسلافكم؛ فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم ، إلى أنها نعم منه عليهم ، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء ، والنعم عند الآباء ، نعماً عند الأبناء ، لكون الأبناء من الآباء .

وهذا التعبير في قوله تعالى : ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين**﴾ قد خرج مُخرج العموم والمراد به الخصوص ؛ لأن المعنى (وأني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه وفي زمانه) وقد أورد ابن جرير رحمه الله عدداً من الروايات عن قتادة وأبي العالية ومجاهد وابن زيد ، تكشف عن أن الآية خرجت مخرج العموم ولكن أريد بها الخصوص . فقد روى قتادة أنه قال: فضلهم على عالم ذلك الزمان . وروى عن أبي العالية ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ قال: بما أُعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

وروى عن مجاهد أنه قال : على من هم بين ظهرانيْه ، كما روى عن ابن وهب أنه قال : سألت ابن زيد عن قول الله ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ قال : عالم ذلك الزمان ، وقرأ قول الله ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين**﴾ قال : هذه لمن أطاعه واتبع أمره ، وقد كان فيهم القردة ومن هم أبغض خلقه إليه ، وقال لهذه الأمة : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ قال : هذه لمن أطاع الله ، واتبع أمره ، واجتنب محارمه .

قال الحافظ ابن كثير بعد أن أشار إلى هذه الروايات : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كنتم

خير أمة أخرجـت للناس تأمرون بالمعـروف وتنهون عن المنكر وتـؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ .

ومما يؤكد أن الآية مرادٌ بها الخصوص الـذي نذكره ، من أن التفضيل كان على عـالمي زمانهم ، مـا جاء في المسـانيد والسنـن عـن معاوية بن حيـدة القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنتم تـوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) وروى الطبري بسنده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : (ألا إنكم وفَّيتم سبعين أمة) قال يعقوب في حديثه: أنتم آخرها وقال الحسن:« أنتم خيرها وأكرمها على الله » .

ثـم إن إبراهيـم الخليـل عليـه السلام : قبلهـم . وهـو أفضـل من جميـع أنبيائهم ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه : بعدهم . وهو أفضل من الخلق جميعهم وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة عليه الصلاة والسلام .

ولعل من الخير أن نـذكر هنا بأن أمتنا ــ وهي خير أمة أخرجـت للناس ـ عندما تخلت عـن موقعها القيادي ، ومالت عن الصراط الـذي به تتبوأ تلك المنزلة العظيمة ، مـن الخيرية العامة والشهادة على الناس : حـلَّ ، بها ما حلَّ وأن الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب على غضب يهددونها في عقر دارها ويسيطرون على المسجد الأقصى ثالث الحرمين ، فهل إلى تذكرة تعيد الأمور إلى نصابها من سبيل؟ اللهم إنك المعين على ذلك والقادر عليه . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

.. وأضلّهم السّامريّ

ـ ١ ـ

ظاهرة تطلع اليهود إلى اتخاذ إله من دون الله ، بُعَيْد إنعام الله جل شأنه عليهم بتجاوز البحر ، وإنقاذهم من فرعون وشيعته الظالمين ، مضافاً إلى ذلك إصرارهم على الانحراف عن التوحيد مع دعوى الإيمان .. كل أولئك وما هو منه بسبيل في سلوكهم ، يدل ـ فيما يدل ـ على خراب النفوس وعمى القلوب التي في الصدور ، ويشي بوجوب الاحتراس والحذر الشديدين من دعاوى يهود ووعودهم ، والتنبه إلى الانحراف الجذري المتأصل ، وما تنطوي عليه الصدور من باطنية عمياء ، لا تدع في الشر والفساد والإفساد زيادة لمستزيد . لقد قال لهم موسى عليه السلام : إنكم قوم تجهلون . وكشف عن حقيقة من أرادوا تقليدهم ، وما أرادوا تقليدهم فيه ؛ ذلكم ما جاء في قول الله تبارك وتعالى على لسانه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ .

وفي متابعة للرحلة مع تلكم الخلائق ، نسعد باصطحاب كلمات هاديات من العهد المكي أيضاً ، تكشف لنا عن موقف آخر ، لأولئك الناس أشد ضلالاً وأعتى .

وذلك أنهم خانوا العهد من بعد موسى ، حين ذهب إلى الجبل للمناجاة ، فعبدوا إلهاً من دون الله ، حيث اتخذوا من حليّهم عجلاً جسداً له خوار ... وعكفوا على عبادته ، متعامين عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه

وكانوا ظالمين .

ذلكم مـا نقرأ في سـورة الأعراف ، وفي أعقاب الآيـات التي كشفـت عن موقف بنـي إسرائيل الذي ألمحنا إليـه في صدر هذا الحديث ، مـن قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المائة : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشرٍ ، فتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هٰرون اخلفني في قومي ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة ، يمـنُّ الله تعالى على بني إسرائيل ، بما حصل لهم من الهداية بتكليمـه موسى عليه السـلام ، وإعطائه التوراة وفيها أحكـامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام وطواها ، فلما تم الميقات ، استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله جل شأنه أن يكمل العشرة أربعين ، والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعْدة ، والعشرَ عشرُ ذي الحجة ، روي ذلك عـن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاله مجاهد ومسروق وابن جريح .

فلما تم الميقات ، وعزم موسى على الـذهاب إلى الطور ، كما قال تعالى في سورة طه : ﴿ **يابني إسرائيل قـد أنجيناكم من عدوكم وواعدنـاكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسوى** ﴾ فحينئذ استخلف أخاه هرون على بنـي إسرائيـل ، ووصـاه بـالإصـلاح ، ونهاه عـن اتبـاع سبيـل المفسـديـن بموافقتهـم على المعاصي . وهذا تنبيه ، وتـذكير من موسى عليـه السلام ، يدل على مقدار تخوفه مما يمكن أن يصنع بنـو إسرائيل ، وما يريده من أخيه من الحيطة بشأن ذلك ، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله ، لا يحيد عن الطـريق التي تتناسـب مع وجاهته وعظيـم فضله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

هكـذا تم الميقـات ، وذهـب موسـى عليه السـلام للمنـاجاة ، بعـد أن استخلف أخاه وأوصاه ، وكان ما كان من الخير في تلكم المناجاة .

وتمضي بنـا الآيـات في تلـك السورة المكيـة ، سـورة الأعـراف ، فـإذا بها تكشف للمسلمين ـ في تلك الفترة المبكرة من عمر الدعوة ـ عما وقع فيه قوم موسى من الضلال والعتو عن أمر الله في غيبة نبيهم عليه السلام . ذلكم ما نجده في الآيةالسابعة والأربعين بعد المائة من قول الله تبارك وتعالى : ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عجـلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾.

والعجل المشـار إليه ، اتخذه لهم السـامري من حُليِّ القبـط الذي كـانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها مـن أثر فرس جبريل عليـه السلام ، فصار عجلاً جسـداً له خوار ، كما جاء تفصيل ذلك في سورة طه والخوار : صوت البقر .

وواضح أن الآيـة ـ كما تكشـف عن ضـلال من ضـل في عبادة العجـل والعياذ بالله ـ كـذلك تحمل الإنكار الشديد عليهـم في ضلالهم بهذا المعبود وذهولهم عـن خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكـه ، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ، لا يكلمهم ولا يرشدهـم إلى خير ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً** ﴾ وجاء في سورة طه ﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ لقد استغرقتهم الضـلالة المثيرة ، فعموا وصمُّوا عن أبسـط ما يدل عليه العقـل السليم ، إذ كيف يستقيم مـع هذا العقل المدَّعـى ، أن يعبدوا مـن دون الله الخالق القـادر ، ما لا يكلمهـم ولا يهديهم إلى خير ، بل لا يـرجع إليهـم قولاً ، ولا يملـك لهم ضراً ولا نفعاً .. ولكن أين الرؤيـة ؟ لقد غطَّى على أعين بصائرهم عمى الجهـالة والضلالة

.. من أجل ذلك عموا وصموا ووقعوا في تلك المهواة ، نعوذ بالله منها ومن أهلها . روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (حبك الشيء يعمي ويُصم) .

من أجل ذلك ، حكم الله عليهم بالظلم فيما صنعوا ، فقال سبحانه : ﴿**اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ . إذ لم يكن لهم أي عذر في ذلك الانحراف ، وأين العذر مع وجود الأدلة القاطعة بأن الله هو الخالق القادر الحكيم ، والآيات الباهرة بأنه لا معبود بحق سواه جل جلاله ، فعندما ينصرف المرء عن الأدلة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ويهمل عقله ، ويغرق في اتباع الهوى ، يكون ظالماً لنفسه وللحقيقة لا محالة .. وهؤلاء المغضوب عليهم ، أعرضوا عن كل ما يدعو إلى الثبات على الإيمان ، وعبدوا ما صنعه لهم السامري من دون الله .

هذا : وكان من عدالة الله تبارك وتعالى ، أن أخبر القرآن الكريم عن أولئك الذين ندموا على ما فعلوا ، وشعروا بأنهم ضلوا ، فتوجهوا إلى الله بطلب المغفرة والرحمة ، نقرأ في ذلك قوله تعالى بعد الآية السابقة : ﴿ **ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ . فسبحان من حكمه العدل ولا يظلم ربك أحداً .

٥ ٥ وأضلهم السّامريّ

ـ ٢ ـ

كنا في الصفحات السابقة مع آيات من سورة الأعراف ، دلّت على ما يؤكد زلزلة القلوب وعمى البصائر عند بني إسرائيل ، يوم خانوا العهد ، ووقعوا في عماية الشرك في غيبة موسى عليه السلام عنهم ـ مستخلفاً أخاه هارون فيهم ـ حين ذهب إلى الجبل للمناجاة الكريمة التي أكرمه بها ربه سبحانه وتعالى ، حيث اتخذوا من بعده عجلاً جسداً له خوار ، عبدوه من دون الله . ذلكم قول الله تباركت أسماؤه : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممنا ها بعشر فتمَّ ميقات ربِّه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ .

وما جاء في الآيتين الثامنة والأربعين بعد المائة والتاسعة والأربعين بعد المائة من قول الله جل شأنه : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين. ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾.

وهذه الآيات البينات تقودنا ـ وهي تكشف عن ذلك الموقف الناقض للإيمان بالله بعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى المناجاة ـ إلى متابعة ما حصل والإحاطة بأطراف القضية من هنا وهناك ، وها هي الآيات التي تضع أيدينا على الحقيقة ؛ ففي أعقاب الآية التاسعة والأربعين بعد المائة ،

يطالعنا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال : ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ، قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الرحمين** ﴾ .

موسى عليه السلام ـ وهو صاحب رسالة عمادها توحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبودية ـ أغضبه أشد الغضب صنيعُ بني إسرائيل في اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه ، وقال لهم بعد أن رجع إليهم ـ وهو على هذه الحال ـ : بئسما خلفتموني من بعدي : بئس ما صنعتم من عبادة العجل بعد أن ذهبت إلى الجبل للمناجاة وتركتكم .

ومما يجدر ذكره ، أن موسى عليه السلام قد أعلمه الله بما وقع فيه القوم من الضلالة العمياء وهو على الطور ، وذلك ما نجده في سورة طه . يقول الله تعالى إخباراً عن نفسه جل شأنه : ﴿ **قال فإنَّا قد فتنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري** ﴾ وإخباراً عما قاله عليه السلام للقوم : ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ أي أسْتعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدَّر من الله تبارك وتعالى وكل شيء عنده بحسبان ؟ وألقى الألواح غضباً عليهم لعبادتهم العجل . وإلقاء موسى الألواح لهذا السبب ـ وهو الغضب على قومه ـ هو ما عليه الأكثرون . وقرر الإمام الطبري أنه الأولى بالصواب من القول .

ولم يكن عجباً من العجب ، أن يعتب موسى على أخيه هارون بادىء ذي بدء قبل أن تنكشف له الأمور ﴿ **وأخذ برأس أخيه** ﴾ ـ وقد أوصاه من قبل وشدَّد في الوصية ـ ﴿ **يجره إليه** ﴾ خوفاً أن يكون قصَّر في نهيهم ، فكان من جواب هارون عليه السلام ، ما دلَّ على أنه لم يقصِّر في نهي بني إسرائيل

عن الـولوغ في الضـلال الذي جـرَّهـم إليـه السامـريُّ . ولكنهم ـ بدل أن يستمعوا إليـه وينتهوا عما نهاهـم عنـه ـ استضعفـوه وكادوا يقتلونـه . وهذه واحدة من رزاياهم وما أكثرها .

وهكذا كان الأمر في غاية الوضـوح ، كما جاء في الآية الكريمة على لسان هارون عليه السلام خطاباً لأخيه موسى ﴿ **قال ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ .

لقد طلـب هارون من أخيـه ـ عليهما السلام ـ بنـاءً على ما كشف لـه عن موقفهم المخـزي ، أن لا يسوقه سياقهم ويجعله معهـم ؛ فهم في وادٍ وهو في وادٍ .

والناظر في هذا الحوار بين هارون ومـوسى : يجد أن خطاب هارون لموسى قد امتزج بنـدى الرقة والاستعطاف ، حيـث قال : ﴿ ابن أمَّ ﴾ ليكون أرق وأنجع عنـد أخيه موسـى عليه السلام ، وإلا فهـو شقيقه لأبيه وأمـه ، مع ملاحظـة أن عتب موسـى على هارون ، قد يكون لأنـه ترك اتباعـه وأقام في الموضع الذي ترك القوم فيه ، وكان منهم ما كان ، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل موسى له : ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن تتبعنِ أفـعصيت أمري **قال: يا ابـن أمَّ لا تأخذ بلحيتـي ولا برأسي ، إني خشيـت أن تقول فرَّقـت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾ .

وقد اتضـح أنه لما تحقق موسـى براءة أخيه من التقصير كما قـال تعالى في سورة طه : ﴿ **ولقد قـال لهـم هارون من قبل يـاقوم إنما فتنتم بـه و إن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري** ﴾ لما تحقق عليه السلام ذلك ـ ورسل الله سادة المنصفين ـ دعـا ربه تعالى لنفسه ولأخيـه جميعاً بالمغفـرة والرحمة ﴿ **قال رب**

اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وجميل ما نـرى عند الطبري شيخ المفسرين في تأويل هـذه الآية ، إذ قال رحمه الله : (يقول تعالى ذكـره : قال موسى لما تبين له عذر أخيـه وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه مـن أمر الله في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجـل : ﴿رب اغفـر لي ﴾ مستغفراً مـن فعله بـأخيه ، ولأخيـه من سالف سلف بينه وبين الله : تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به ﴿ وأدخلنا في رحمتك﴾ يقول : وارحمنا برحمتك الواسعة عبادَك المؤمنين ، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً) .

وهنا ما بد من الإشارة إلى قاعدة نورانية نجدها في السنة المطهرة ، تتعلق بإلقاء مـوسى الألواح ، بعد أن عاد إلى قـومه غضبان أسفاً ، وهـي أنه ليس المعايـن كالمخبَر ؛ فقد أخـرج ابن أبي حاتم عـن سعيد بن جبير عـن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ « يـرحم الله مـوسى ليـس المعاين كالمخبر ، أخبره ربـه عزوجل أن قومه فتنوا بعـده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح » .

فصلاة الله وسـلامه على نبينا محمـد رحمة العالمين ومعلـم الناس الخير ، وعلى سـائر إخوانـه من الأنبيـاء والمرسلين . ونسـأله تعـالى أن يهيىء لأمـة الإسلام من أمر هـا رشداً . وأن يردها إلى الطريق الـذي تضيء شعابه في كل زمان ومكان هداية الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، كيما تتجاوز الواقع إلى ما يجب أن يكون ، وتتعامـل مع أعداء الله ـ وفي مقدمتهم اليهود ــ بالطريقة الواجب اتباعها ، والله ولي الصابرين المجاهدين .

(اتخذوه وكانوا ظالمين)

من سمات القرآن الكريم ، في الرفعة التي لا تدانى ، والحكمة التي لا تجارى ، أنه قد يتعدد ذكر قصة من القصص فيه ، إيجازاً أو تفصيلاً ، ويلمح الناظر المتبصر من خلال ذلك ، أن لهذه القصة ـ حيث ذكرت ، وعلى أي وجه كان ذكر ها ـ مكانها الطبيعي على محور الهداية بما يتناسب كل التناسب مع هذا المحور ؛ ذلك لأن القرآن الكريم كتاب هداية قبل كل شيء ، فأيان كانت الحكمة في إيراد تلك القصة تفصيلاً أو بإيجاز ، بالتصريح أو التلميح ، وجدناها ترد في كلام الحكيم الخبير ، على الوجه المناسب ، وتلك ـ والله أعلم ـ لمحة من لمحات الإعجاز البياني في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي يتجدد معه على المدى ، صدق الحقيقة التي استعلن بها الوحي قبل أربعة عشر قرناً أو تزيد ، حيث قال الله جل ثناؤه :﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ .

كان عليَّ أن أسوق هذه الكلمات بإيجاز لا يحتمل المقام أكثر منه ، بين يدي العزم على اصطحاب ما جاء في سورة طه المكية ، في شأن واحدة من مخازي بني إسرائيل وضلالاتهم ، وهي اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه من دون الله ، بعد أن سعدنا بصحبة ما جاء في هذا الشأن من آيات كريمات في سورة الأعراف ، وذلك رغبة في المزيد من عطاء الكلمة القرآنية على محور الهداية ، وهي تعرض للقصة أو الواقعة في أكثر من موطن .

ولما كانت السورتان من القرآن المكي ، وكان الحديث عن بني إسرائيل

فيهما يؤكد ما أشرنـا إليه سابقاً من أن الكلام على أجـداد اليهود ، والكشف عن ذميم خصالهم وما كان من ضلالاتهم ، وأسباب الغضب عليهم في هذه الفترة المبكرة مـن عمر الدعوة الإسـلامية ، له دلالتـه في أن الأحفاد على نهج الأجداد وأن العصا مـن العُصيَّة ، ثم في عظم الأمانة التـي يحملها المسلمون في مواجهة خطر اليهود على أمة الإسلام والإنسانية جمعاء ، فكأن الله أراد أن يضع أيـدي المسلمين منذ العهـد المكي ـ وهم قلـة مستضعفة ـ على تلك الحقائق التي ما كادت أقدامهم تطأ أرض المدينة مهاجرين ، حتى تكشفت من الأحفاد بأخزى الصور وأشدها عتواً وإيغالاً في الضلال ، وإن كان شيء مـن دس اليهود ومكـرهـم قـد بدأ حتـى في العهـد المكـي من وراء ستـار ، والمسلمون لما يهاجروا إلى المدينة، ولما يبتلوا بمجاورة اليهود عليهم لعائن الله.

والآيات التي نشير إليها مـن سورة الأعراف هي ما جاء في الآيـة الثانية والأربعين بعد المائة مـن قول الله تبـارك وتعالى : ﴿ وواعدنا مـوسى ثلاثين ليلة ، وأتممنـاها بعشر ، فتمَّ ميقـاتُ ربه أربعين ليلـةً ، وقال موسـى لأخيه هـرون اخلفني في قـومي وأصلـح ولا تتبع سبيـل المفسديـن ﴾ وما جـاء في الآيات الأربـع بدءاً من الآيـة الثامنة والأربعين بعـد المائة من قولـه تعالى : ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليِّهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال : بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ بـرأس أخيه يجره إليه قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلـونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلنـي مع القوم الظالمين. قال: رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾

وقد وقفتنا هذه الآيات المباركات ، على أن موسى عليه السلام قد ذهب إلى الجبل للمناجاة ، بعد أن تم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقد استخلف أخاه هارون في قومه قبل ذهابه ، وأوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين . كما وقفتنا على اتخاذ بني إسرائيل في غيبة موسى ، عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله ، متعامين عن أنه لا يكلمهم ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا يهديهم سبيلاً ، ومخالفتهم لهارون وعدم الاستجابة له ومحاولتهم قتله بعد أن استضعفوه ، ثم كيف أن موسى عليه السلام عتب على أخيه هرون في أول الأمر ولما عرف الحقيقة ، دعا الله لنفسه ولأخيه بالمغفرة والرحمة فقال : **﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾** .

أما الآيات التي ألمحنا إليها من سورة طه : فهي ما نجده بدءاً من الآية الثالثة والثمانين من قول الله تبارك وتعالى خطاباً لموسى عليه السلام : **﴿ وما أعجلك عن قومك ياموسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى﴾** .

لما تم الميقات أربعين ليلة ، سارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، كما أسلفنا من قبل ، لهذا قال الله جل ثناؤه **﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري ﴾** يعني هم قادمون ينزلون قريباً من الطور . ثم علَّل موسى عليه السلام استعجاله بأنه طلب لمزيد الرضا من مولاه سبحانه **﴿ وعجلت إليك رب لترضى﴾** أي لتزداد عني رضا .

وبعد الآيتين المشار إليهما ، نقرأ قول الله تبارك وتعالى : **﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلَّهم السامري﴾** حيث أخبر ربنا جل جلاله نبيه موسى عليه السلام بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل ، والعماية الضالة التي

وقعوا فيها ، وهي اتخاذهم العجل الذي صنعه لهم السامري معبوداً من دون الله .

وفي الكلام على رجوع موسى عليه السلام غضبان أشد الغضب على قومه ، بعد أن أعلمه الله تعالى بما حصل في غيبته وهو يسعد بمناجاته سبحانه وتعالى وما دار من الحوار بين موسى وبين قومه ، ومحاولتهم تسويغ عملهم بما يكاد يكون أقبح من فعلتهم التي ضلُّوا فيها عن سبيل الحق وأعرضوا عن الدليل وخانوا العهد في الكلام على ذلك كله ـ وقد وقفتنا على جملة منه سورة الأعراف بما يتناسب مع الغرض الذي سيقت لأجله القصة هناك ـ في الكلام على ذلك كله نقرأ قول الله تعالى في أعقاب الآيات السابقة: ﴿**فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي . قالوا :ما أخلفنا موعدك بِملْكِنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي . أفلا يرون ألا يرجعُ إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**﴾ .

لقد غضب موسى على قومه أشد الغضب وحُق له أن يغضب ، فهو فيما هو فيه من المناجاة ، والاعتناء بأمرهم وتسلم التوارة التي فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم وذكر في الناس ، أن لو صدقوا في اتباعها والعمل بأحكامها .. وهم قوم قد عبدوا غير الله . وكل عاقل له لبٌ وحزمٌ يعلم بطلان ما هم فيه ، وما شاب عقولهم وأذهانهم من سلطان الهوى والخبال ، ولذلك جاء التعبير القرآني ﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً** ﴾ والأسف شدة الغضب ، والتغيظ به على من أغضبه ، وإذا كان الأسف يأتي بمعنى الحزن

أيضاً : فأي مانع يمنع من أن يكون موسى قد أغضبه ما حصل أشد الغضب ، وأحزنه ، فرجع إلى قومه وهو على هذه الحال .

وقد أنكر عليهم موسى أن يفعلوا ما فعلوا وهو الخبال بعينه ، وقد وعدهم الله وعداً حسناً ـ ووعده الصدق ـ أن يعطيهم التوارة . فهل طال عليهم العهد ؟ أم أرادوا بملء اختيارهم أن يحل عليهم الغضب بعبادتهم العجل فأخلفوا موعده وتركوا المجيء بعده ؟ ﴿ **قال : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؟** ﴾ .

ألا إن هذه الحقائق أمانة في الأعناق ، تدعو إلى مزيد من الاعتبار ، وفهم واقع هؤلاء الناس في ضوئها ، كيما يكون المسلمون ـ وهم على خط المواجهة المتعددة الميادين ، المتشعبة المسالك ـ على وضوح في الرؤية ، ودقة في وزن الأمور ، وتقدير الوقائع ، فيصدقوا الله مجاهدين صابرين ، ليصدقهم بالنصر والتمكين ، وهو ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً .



كادوا يقتلون هارون

في رحلتنا القصيرة مع سورة طه ــ إحدى سور القرآن المكي ــ أسلمنا اصطحاب بعض آياتها التي تتحدث عن موقف بني إسرائيل الموغل في الوثنية والشرك ــ إلى قبس من عطائها على صعيد السلوك اليهودي ، حيث أجاب موسى عليه السلام ، عما أعجله عن قومه ، وأنه كان طلباً لمزيد الرضا من مولاه عز وجل ، وحيث أعلمه الله جل شأنه أن قومه فُتنوا من بعده وأضلهم السامري ، بأن صنع لهم عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله ، ناهيك عن إخلافهم الموعد الذي ضربوه معه عليه السلام ، وتركهم المجيء بعده .

وكان آخر ما وقفتنا عليه الآيات ، ما نطقت به الآية الأخيرة من رجوع موسى غضبان أسفاً على قومه بعد أن أعلمه الله بصنيعهم ، وتطلعهم الهابط إلى كل ما هو ضلال وعتو عن أمر الله . وكان من تأنيبه الشديد لهم قوله ـ كما جاء في الآية الكريمة ـ : ﴿ **ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد ، أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدي** ﴾ .

ونتابع الرحلة مع الآيات التي تتحدث عن هذا الموقف من بني إسرائيل في سورة طه ، على النسق الذي استضأنا به ، ونحن نسعد باصطحاب نظائرها من سورة الأعراف ، لنرى قيمة العذر الذي تعللوا به لانحرافهم المخزي ، وموقفهم من تذكير هرون عليه السلام إياهم ، بأن ربهم الرحمن وأن عليهم أن يطيعوه ويتبعوا أمره ، حيث أصروا على أن يظلُّوا عاكفين على

معبودهم الجديد حتى يرجع إليهم موسى ... ثم ما دار من الحوار بين موسى وهرون عليهما السلام ، وما صرح به السامري بشأن صنيعه الذي جرَّ إليه بني إسرائيل .

ولننظر في الآيات الكريمات بدءاً من الآية السابعة والثمانين حيث يقول الله جل ثناؤه : ﴿ **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي** ﴾ .

إنهم يقولون لموسى ، معتذرين عن إخلافهم الموعد باللحاق به وعكوفهم على عبادة العجل: ما أخلفنا موعدك بقدرتنا واختيارنا ، ولكنَّ ما حصل كان من السامري الذي صاغ من الحلي عجلاً جسداً له صوت يسمع ، حيث انقلب كذلك ، بسبب التراب الذي كان قبضة من أثر جبريل ، فقال السامري وأتباعه من أولئك الضُّلال الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : هذا إلهكم وإله موسى ، فنسي موسى ربه هنا وذهب يتطلبه .

أرأيت إلى هذا العذر البارد ، والقولة المنكرة المستقبحة !! أين الإيمان بالله ؟ واليقين بأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه هو الخالق الحي القيوم الذي لا يجوز أن تعنو الوجوه إلا له؟ من أجل هذا بيَّن سبحانه قُبْحَ اعتذارهم بما اعتذروا به ، فقال رداً عليهم ، وتفزيعاً لهم وبياناً لفضيحتهم أنفسهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه من التعلُّل الهابط ، الذي يتنافى كل التنافي مع الدليل الساطع والحق الصراح ، أجل ، قال سبحانه رداً عليهم : ﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ وهذا يذكرنا بما جاء في سورة الأعراف من قوله جل ثناؤه : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حُليِّهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ،**

اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ .

والحق أن الـذي يـؤكد إصرارهـم على استحسـان مـا غمرتهم بـه الفتنـة العمياء، مـن عبادة ذلك العجـل الذي صنعه لهم السـامري ، موقفهـم من نصح هرون عليـه السلام ، وتذكيره إياهم بأنهم قـد فتنوا بهذا المعبود ، وأن ربهم الرحمن ، ولا معبود بحق سواه جل شأنـه . لقد أمرهم ونهاهم وذكرهم ـ وله عليهم واجب الطاعة إذ أنه يذكـرهم بكلمة الله ـ ولكن كان من نتيجة تكليمه إياهم أداءً للأمانة المنوطة به من الله ، وإنفاذاً لوصية أخيه موسى .. كان من نتيجة ذلك ، إعلانهم ـ ويا خيبة ما أعلنوا ـ أنهم لن يبرحوا عاكفين على هذا المعبود ، الذي اتخذوه من دون الله حتى يرجع إليهم ، ذلكم قول الله جلَّ وعز : ﴿ **ولقد قـال لهم هٰرون من قبل يـاقوم إنما فتنتم بـه ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾** .

ويجيء العتاب من موسى لهرون ، ويكشف هرون لموسى عن الحقيقة وأنه ـ والحمدلله ـ كان عند أداء الأمانة ، وإنفاذ الوصية على الوجه الذي ينبغي ، ففي أعقـاب قوله تعالى: ﴿ قـالوا لن نبرح عليـه عاكفين حتى يرجـع إلينا موسـى ﴾ نقرأ قول الله جـل ثناؤه بـدءاً من الآية الثـانية والتسعين : ﴿ **قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن أفعصيت أمري . قال : يابنؤمَّ لا تأخذ بلحيتـي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقـت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾** .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن خشية هرون عليه السلام من أن يقول له أخوه إذا تبعه وتركهم : فرّقت بين بني إسرائيل ولم تـرقب قولي ، كان جزءاً مما اعتذر به هـذا النبي الكريـم ؛ فقد رأينا في سـورة الأعراف ـ مـن قبل ـ مـا يعطي

التكامل في موضوع الاعتذار ، والإحاطة بها لابس موقف القوم المجافي للحق من هارون ، إذ كادوا يقتلونه ، وعنادهم في الإصرار على الباطل ؛ فمما جاء في الآية الخمسين بعد المائة من السورة المومى إليها ـ وقد رأينا ذلك من قبل ـ قول الله تعالى على لسان هرون يخاطب أخاه موسى : ﴿ **قال ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ .

وهكذا ترى أن هنالك تردياً في حمأة الوثنية ، وإصراراً عليه ـ إلا من رحم ربك ـ ووقفة ظالمة من تذكير النبي تصل إلى حد أنهم كادوا يقتلونه ، إذ لم يكتف هؤلاء المغضوب عليهم بالمخالفة والعناد والإصرار على ما فتنوا به من عبادة العجل ، وعدم الامتثال لنبيهم في أمره ونهيه ، بل كادوا يجعلون من إنهاء حياته ، آخر لون من ألوان الحوار معه .. وإذا كان هذا مع نبي من أنبيائهم فماذا أنت قائل فيما وراء ذلك ؟

أقول بعد هذا : كم تكون أمتنا أمة الإسلام مجافية لمورد القوة، والتفسير الدقيق للتاريخ ، حين تغفل عن مثل هذه الحقائق في حياة أولئك الأناسي ، وهي تعيش مع اليهود واقعاً هو حلقة في سلسلة من الأذى ، نسيجها من جانبهم وجانب من يشايعونهم محادَّة الله ورسله ، والعدوان على الحق حيث كان ، ناهيك عن الحرب المعلنة على المسلمين حيناً ، والمستخفية الماكرة أحياناً ، في كل ميدان من الميادين ـ لا تستثن حقبة من حقب التاريخ ـ وما أسوأ عواقب الغفلة !! ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سوء العاقبة .. ودعوة إلى الاعتبار

ليس من مكرور القول أن نشير إلى أن الاعتبار بـالقصة والإفادة مما تعطي من دروس ، غرض أساسي من أغراض القصص في القرآن الكريم ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ .

وإن مما يدعو للتفكر والتذكر والاعتبار بشكل أكثر عمقاً ، ما جرى عليه الكتاب المعجز ، من العناية عند سياق القصص ، بإبراز ما ترتب على عمل ما ، أو موقف من المواقف ؛ حين وزن التصرفات جميعاً بمعيار الحق .. ما ترتب على ذلك من مثوبة وموعدة بالخير والعطاء ، إن كان ما حصل ، يتحرك في نطاق الاستقامة والاستمساك بالحق . ومن عقوبة ووعيد بسوء المصير ، إن كان ما حصل ، يتحرك في نطاق الضلال عن سبيل الله ، ومظاهرة الباطل على الحق .

قادني إلى التذكير بهذه الحقيقة ـ وهي مشهودة لمن يحسن النظر في سياق القصص القرآني ـ ما كان من تعرية دقيقة لموقف بني إسرائيل الشركي ووعيد شديد عليه ، وهو الموقف الذي تمثل في افتتانهم ـ أخزاهم الله ـ بالعجل الذي صنعه السامري وعكوفهم ــ وهرون عليه السلام بين ظهرانَيهم ـ على عبادته من دون الله ، ثم ما كان من مماراتهم في الحقيقة وجدلهم بالباطل ليدحضوا به الحق ، حتى كادوا يقتلون هرون عليه السلام الذي أخلص في تنبيههم ، وبيَّن لهم طريق الرشد من طريق الغي ، وحذَّرهم من الضلال أشد التحذير .

والمتتبع لآي الكتاب بشأن هذه الواقعة التي أريد للمسلمين أن يعتبروا بها ، واجد أن التنديد بما حصل ، والإيذان الصريح بالعقوبة الصارمة عليه في الدنيا والآخرة ، لم يقتصر إبرازهما على القرآن المكي ، بل تجاوزه إلى القرآن المدني ؛ ففي سورة الأعراف وهي سورة مكية نقرأ في الآية الثانية والخمسين بعد المائة قول الله جل ثناؤه : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ على أن الآية التي تلي تؤذن بأن باب التوبة مفتوح لمن صدق في العودة إلى الله . والآية الكريمة هي قول الله تعالى : ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ .

أما عن القرآن المدني : فإنا نقع على عدد من الآي في سورتي البقرة والنساء : ففي سورة البقرة نقرأ في الآية الحادية والخمسين قول الله جل ذكره: ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ كما نقرأ في الآية الرابعة والخمسين قوله سبحانه : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾ . وتطالعنا الآية الثانية والتسعون من السورة نفسها بقوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ يتلوها قوله سبحانه : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا : سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

وننتقل إلى سورة النساء ، لنجد الآية الثالثة والخمسين بعد المائة ، تنطق بقول الله تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو خطاب

يحمل على طريق الدعوة ومشاقها ما يحمل من تسلية وإيناس ـ : ﴿ يسْألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء ، **فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً** ﴾ .

وبعد هذا : لا بد من الإشارة إلى أن العناية التي أعطيت لموضوع انحراف بني إسرائيل بعبادة العجل ، وما لابس ذلك من ضلالات ، والتي نشهدها على حد سواء في المكي والمدني من الذكر الحكيم كلام رب العالمين .. أن هذه العناية تشي بالأهمية البالغة المعطاة لنظافة الطريق ـ طريق أهل الإيمان في الدعوة إلى الله ـ من شوائب الشرك ومخالفة ما جاء به المرسلون ، فضلاً عن الوقوع فيه والعياذ بالله ؛ فالجماعة المسلمة ـ وهي تشق طريقها إلى إنشاء المجتمع المسلم وقيادته بشريعة الله ـ حجرُ الزاوية في منهجها الرباني إلى ذلك : التوحيد الخالص ، والبعد عن كل ما يتنافى مع العبودية الحقة لله عز وجل في كل شأن من الشؤون ، مهما طال الأمد ، وتبدلت الظروف وتعددت ألوان الصوارف التي يقيمها وينسج حبائلها شياطين الإنس والجن . وملاذ المسلمين أبداً كيما يكونوا على الصراط السوي ، مؤهلين لمواجهة التحديات في ضوء المنهج الرباني : إحكام الصلة المتدبرة الواعية بكتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

هذه واحدة : وفي حديث موصول بما أشرنا إليه في صدر هذه الكلمات من مكانة الاعتبار والتذكر في نطاق الغرض من القصص القرآني ، تأتي الثانية ، حيث نجد في الكتاب الكريم ما يضع أيدينا على ذلك .

ذلكم ما نقرأ في أعقاب ما جاء بشأن الموقف الشركي الذي اجترحه بنو إسرائيل بعبادة العجل ، بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة ، وما أحاط

ذلك من تصرفات كلها إثم وضلال من مثل خيانة العهد ، وعدم الانصياع لتذكير هرون ، والإصرار عناداً واستكباراً على الموقف الظالم ..نعم .. ما نقرأ في أعقاب ذلك كله ، بدءاً من الآية التاسعة والتسعين من سورة طه ، من قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام وهو المؤتمن على البيان : ﴿ **كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً** ﴾ والذكر هنا هو القرآن الكريم.

فالتذكر والاعتبار تحقيقاً لغرض القصة في القرآن : يضمن ـ بعون الله ـ الطريق الواضحة التي يتجنب أصحابها ما وقع فيه الآخرون من زلل وانحراف . والمعتصم الأول هو الفرقان ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ والمعرض عن القرآن بترك تدبره والعمل به ، موقع نفسه في الهلاك لا محالة ، وذلك نجده في الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا** ﴾ .

وواضح أن الضمير في (عنه) عائد إلى الذكر وهو القرآن ، والوعيد يشمل الفرد والجماعة ، إذ إن (من) في قوله تعالى : ﴿ من أعرض ﴾ تفيد العموم لأنها من أدواته ، لهذا نرى أنه بعد أن جاء الضمير با لمفرد في قوله جل شأنه : ﴿ **فإنه يحمل يوم القيامة وزراً** ﴾ جاء التصريح بالجمع في قوله سبحانه بعدها : ﴿ **خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حملاً** ﴾ .

اللهم اهدنا سواء السبيل ، وارزقنا حسن الاعتبار بما ورد في شأن أعداء الله ، وضوابط الموالاة والمعاداة في كتابك الكريم وسنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام ؛ فما من عاقل يرتاب في أن ذلك واحد من الأسلحة التي ما بد من توافرها بين يدي المعركة الفاصلة ، والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم)

أشرت سابقاً إلى أن مما يؤكد الأهمية المعطاة للتذكر والاعتبار بالقصة القرآنية ، في إطار الغرض من إيراد القصص عموماً في كتاب الله الكريم ، ما يقترن بالعمل الخيِّر ، من مثوبة ووعد حسن ، وما يقترن بعكسه ، من عقوبة ووعيد . وعلى هذا السنن – كان ما صاحب التعرية الدقيقة لما حصل من بني إسرائيل - بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة - من عبادة العجل ، وما اجترحوا من سلوكٍ مداره الإثم والضلال .. على هذا السنن ، كان ما صاحب تلك التعرية من تنديد بذلك الموقف وما اقترن به ، ومن إنذار بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وذلك ضمن آيات كريمات نجدها في مدني القرآن كما نجدها في مكيِّه ، على شيء من التفاوت في الأسلوب الذي يدل على حكمة الله في إيراد الواقعة ، أو الإشارة إليها على أكمل ما يكون التناسق مع محور الهداية في الكتاب العزيز .

وبعض هذه الآيات، اقتصر من قريب على ذكره . وموعدنا في الصفحات القادمات ، وقفة يسيرة عند كل منها ، تسعف - قدر المستطاع – في تجلية القضية المشار إليها ، كما تكشف عن ثقل الأمانة الملقاة على عاتق الأمة المحمدية في التذكر العميق ، والتدبر الواعي لما عوقب به أولئك الفئام من بني إسرائيل ، يوم حادوا عن الصراط السوي ، واستبدلوا الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء ، بهدى الله وما جاء به المرسلون . والآيات التي نلمح إليها هي ما جاء في سورة الأعراف وهي سورة مكية ، وما جاء في سورتين مدنيتين هما : سورة البقرة وسورة النساء .

ونبدأ بما جاء في سورة الأعراف من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والخمسين بعد المائة ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين** ﴾ .

هكذا نجد الآية الكريمة ، صريحة في التنديد بالذين اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله ، وأن جزاءهم على ذلك عقوبتان هما غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ؛ فإنهم لم يتخذوا العجل معبوداً من دون الله فحسب ، بل افتروا على الله الكذب زاعمين أن هذا العجل هو إلههم وإله موسى ، وأن موسى نسي إلهه وتركه عند ذهابه إلى المناجاة ﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي** ﴾ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في تلك الضلالة العمياء عبادة العجل : فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة ، حتى قتل بعضهم بعضاً كما جاء في سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾.

وأما الذلة : فما أعقبهم ذلك من الهوان والصغار في الحياة الدنيا . وهذا مشهود عبر التاريخ ومشهور . أما ما هم عليه الآن من تعالٍ وغطرسة : فينطبق عليه قول الشاعر : خلا لك الجو فبيضي واصفري .

وأنت ترى كأن العقوبة الأولى ، كان من لازمها العقوبة الثانية ؛ فغضبُ الله عليهم ، بأن لم يقبل لهم توبة إلا بأن يقتل بعضهم بعضاً ، كان هواناً لهم وصغاراً تمرغوا في حمأته وذلة أذلهم الله بها في الدنيا . قال الإمام الطبري رحمه الله : فكان أمر الله إياهم بما أمرهم به من قتل بعضهم أنفس بعض عن

غضب منه عليهم بعبادتهم العجل . فكان قتل بعضهم بعضاً هوانا لهم وذلة أذلهم الله بها في الحياة الدنيا . ولما كان عملهم افتراءً على الله إذ كذبوا عليه ، وأقروا بألوهية غيره وعبدوا وثناً من دونه زاعمين أنه هو إلههم وإله موسى عليه السلام ، فقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ .

وفي هذا تذكير أيُّ تذكير للجماعة المسلمة أن تقع ـ لا سمح الله ـ بشيء مما وقع به أولئك الأناسي من بني إسرائيل. فكما جزى هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؛ من إحلال الغضب بهم ، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم ربهم ، وردتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله ، كذلك يجزي كل من افترى على الله ، فكذب عليه ، وأقر بألوهية غيره وعبد شيئاً سواه من الأوثان ـ مهما كان لونها وحقيقتها ـ بعد إقراره بوحدانية الله ، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله . ومنجاته من ذلك أن يتوب عن غيِّه توبة نصوحاً كما أمره ربه سبحانه ، ذلكم قوله تعالى في الآية التي تلي: ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ .

وبعد هذا الذي رأينا من مكي القرآن في سورة الأعراف ـ وقد نزل في أعقاب الكلام على صنيع اليهود في عبادة العجل وما صحب ذلك من المآثم ـ ننتقل إلى تلكم الآيات المدنية التي نقع عليها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ في سورتي البقرة والنساء .

ففي الآية الحادية والخمسين من سورة البقرة ، يطالعنا التنديد بضلال بني إسرائيل في عبادة العجل ، الذي اتخذوه بعد الذي أنعم الله عليهم بمواعدة موسى أربعين ليلة ، والحكم عليهم بأنهم ظالمون . ذلكم قوله تعالى : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم**

ظالمون ﴾ نعوذ بالله من المقت . لقد ظلموا أنفسهم بما سلكوا من سبيل الغضب والذلة، وظلموا الحقيقة بما افتروا على الله وتجاوزوا الحق إلى الباطل ، والهدى إلى الضلال .

أما الآية الرابعة والخمسون من السورة نفسها ـ وقد أشرنا إليها من قريب ـ : فتكشف عن الطريق التي أمرهم الله بسلوكها ، كي يتوب عليهم من ظلم أنفسهم بما وقعوا فيه من تلك المهواة المنكرة . والآية الكريمة هي قول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾ .

ولا تطول بنا الرحلة ، حتى نقع على لون آخر من التنديد ، وذلك بالكشف عن أن بني إسرائيل اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم موسى بالبينات وذلك من أعتى أنواع الضلال ، إذ ليس لهم عذر بعد تلك البينات فيما ولغوا فيه من الإثم حين عبدوا ـ بعد أن غادرهم موسى إلى الطور ـ عجلاً جسداً له خوار لا يرجع إليهم قولاً ولا يهديهم سبيلاً . ومن هنا كانوا بحق ضلالاً ظالمين . نقرأ في ذلك ما جاء في الآية الثانية والتسعين من قول الله تعالى : ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾.

وفي تقريع بالغ الشدة يكشف عن خيانة العهد وكفران النعم ، وعن أن هؤلاء القوم، ديدنُهم أن يقولوا : سمعنا وعصينا ، وأن حب العجل قد خالط حبات قلوبهم ، كما يخالط الشراب؛ فهم واقعون في التناقض بدعواهم الإيمان بالتوراة وعبادتهم العجل .. في تقريع على هذه الشاكلة ، نقرأ في الآية التي تلي قول الله جل ذكره : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور**

خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

حتى إذا غادرنا سورة البقرة إلي الآية الثالثة والخمسين بعد المائه من سورة النساء وجدنا الكلمة القرآنية تضيء للنبي ﷺ طريقه في مواجهة أهل الكتاب، وهو يدعو إلى الله ، وتسليه بأن ما يسأله أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ من أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، قد سأل من يُنسبون إليهم ما هو أكبر من ذلك ؛ وهو قولهم : ﴿أرنا الله جهرة ﴾ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات .. فليس جديداً ما يواجهونه به من المكر والحيلة ومحاولة التعجيز . ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً** ﴾.

و إني داع ـ ونحن نعاني ما نعاني ، من مرض الغفلة في تعاملنا مع اليهود وأعوانهم ، والانصراف عن اللغة المناسبة المنتجة ، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام : اللهم اجعلنا من الذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ..



التجرؤ على رب العالمين .. والجزاء

- ١ -

ذكّرت غير مرة بها للحديث في القرآن الكريم ــ والمكي منه بخاصة ـ عن بني إسرائيل ، وتعرية مواقفهم الضالة سواء منها ما يتصل بالعقيدة ، أو ما يتصل بالسلوك ، ودعوة المسلمين إلى التذكر والاعتبار بما حصل لهم بسبب زيغهم وانحرافهم ، من بالغ الدلالة على أهمية ذلك في تلك الحقبة المبكرة من عمر الدعوة ، والذي يعطي ــ فيما يعطي ــ أن المسلك الموسوم بالانحراف المتأصل في النفوس ، هو الذي ينتظم أجيال اليهود المتعاقبة دونما استثناء ، وأن على المسلمين أن يكونوا أبداً على علم بذلك وذُكر منه من أول الطريق ، فقد كشف لهم القرآن عن كثير من المعلومات البالغة الأهمية على هذه الساحة ـ وهم ما يزالون في العهد المكي فئة مستضعفة في مواجهة أهل الشرك ـ ولما هاجروا إلى المدينة حيث أصبح قياد المجتمع بأيديهم ، وحيث أصبح اليهود طرفاً حاقداً حاسداً له دعاواه العريضة في مرحلة الصراع .

وفي سياق الحديث عن ذلك من قبل ، مثّلت بآيات من سورتين مكيتين هما سورة الأعراف وسورة طه ، حيث وقفنا على موقفين ظالمين من مواقف بني إسرائيل يتصلان اتصالاً مباشراً بالعقيدة ، ناهيك عن التناقض الصارخ بين الدعوة والسلوك أولهما : طلبهم من موسى عليه السلام بعد أن جاوز الله بهم البحر ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام**

لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

ثاني الموقفين : اتخاذهم ـ إبان ذهاب موسى عليه السلام إلى المناجاة ـ عجلاً جسداً له خوار معبوداً من دون الله ، وعصيانهم هرون عليه السلام ، إذ لم يستجيبوا له فيما أمرهم به وما نهاهم عنه ، بل لجوا في طغيانهم حتى كادوا يقتلونه ، كما نرى في سورة الأعراف.

وفي الموضوع نفسه نقرأ في سورة طه ، ما يكشف عن أن السامري هو الذي جرهم إلى فتنة العجل ، وأن هرون أدى واجبه كاملاً غير منقوص ، ولكنهم هم الذين أصروا على التمسك بالطريق الضالة التي سلكوها معرضين كلياً عن أي من كلمات الهداية والخير .

ونعود إلى سورة الأعراف، لنرى صورة أخرى من عمى القلوب على ساحة الباطل المستهتر ، تصدر عن بني إسرائيل بعد كل الذي جرى ، لتكون حلقة في تلك السلسلة العفنة من أفاعيلهم وسوء صنيعهم على صعيدي العقيدة والسلوك . والصورة التي أعنيها هي تهديدهم موسى عليه السلام ـ بعد أن أيقنوا بأن الله يكلمه ـ بأنهم لن يؤمنوا له حتى يريهم الله جهرة ، وهو مطلب يعبر عما في النفوس من الشك الفاضح والاضطراب .

ففي الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة نقرأ قول الله تباركت أسماؤه : **﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ، قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هي إلا فتنتك ، تُضل بها من تشاء ، وتهدي من تشاء ، أنت وليُنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ .**

تخبرنا الآية الكريمة أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات وقَّته له ربه ، ثم ذهب بهم إليه ليعتذروا ــ كما يقول العلماء ــ عن عبادة العجل ، فلما أتوا المكان المحدد لذلك ، وأيقنوا أن الله يكلم موسى عليه السلام ، ما كان منهم إلا أن نطقوا بكلمة الضلالة مستهترين ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة ، وهي المراد بالرجفة في الآية التي نحوّم حولها . فلما أخذتهم الصاعقة ، ماتوا . فقام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله فكان مما قاله : ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي** ﴾ أخرج الإمام الطبري بسنده عن السدي قال: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا . فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك ياموسى حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلمته فأرناه ! فأخذتهم الصاعقة ، فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : (رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ، لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي) .

هكذا فعلوا ، بعد أن أيقنوا بأن الله يكلِّم نبيهم موسى ، فبدل أن يزدادوا إيماناً ، ويكون منهم تذوق لحلاوة هذا الإيمان ، تحولوا إلى النقيض فقالوا لموسى : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ .

والذي يثير الدهشة ، أن عدداً من الروايات ، ومنها الرواية التي أثبتنا عن السدي ، تصرح بأن الذين فعلوا ذلك هم خيارهم ؛ لأنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ، الأمر الذي يدل على أن سوء الطوية هو الأصل عند هؤلاء الناس ، وعندما يطالبون بالدليل ، ويتظاهرون بالمزيد من الرغبة في إعمال العقل ، يكون ذلك صورة فاضحة من صور

التعنت والـرغبة في المراء ، وإلا : فأيـن الذي حصـل من تشوفهـم إلى صنم يعكفون عليه تقليداً لمن رأوهم يفعلون ذلك ، بعد أن أنقذهم الله من فرعون وشيعته ، وجـاوز بهم البحر ؟ أين هـذا من الإيمان وفعل المؤمنين ، بـل أين تقع عبـادتهم العجل من دعوى الإيمان والأدلـة الناطقةبوجـود الله وحكمته وقدرته ؟؟.

وأخيراً وليس آخـراً : كيف نعلّـل صنيعهم البـاطل الـذي يتمثل بقـولهم لموسى بعد أن أيقنوا أن ربه يكلمه : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ .. وهذه من يقولها ؟ يقولها السبعون الذين اختارهم موسى ..

حقاً إنه التعنت الذي لا تعنت بعده ، والعنـاد الذي لا يدانيه عناد ، مع الدعوى العريضة بأنهم أهل التوراة وأهل الإيمان .

وقد حـرص القرآن على تنبيه المسلمين على أن ما يصنعـه اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسـلام حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافهـم من قبل . أليس ذلك درساً بالغ الخطورة لأمتنـا في كل عصر، كيما تأخذ حِذرها وتكون على الجادة في حياتها ، فتأخذ الكتاب بقوة ، وتحسن التنهيج وتحكم خطوات التنفيذ على صعيد العلاقة بأعداء الله ظلمة الحق والإنسان؟

التجرؤ على رب العالمين .. والجزاء

ـ ٢ ـ

كانت لنا فيما سبق وقفة عجلى عند واحد من مواقف بني إسرائيل الضالة التي لها شديد الصلة بالعقيدة والسلوك . وهي وقفة هدى إليها قبس من عطاء الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورةالأعراف المكية ، فقد دلت الآية فيما دلت ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ على أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً على عينه ، ليقوموا بأمر جلل ، هو الاعتذار إلى الله تبارك وتعالى من عبادة العجل . ولما أتوا المكان الموعود ، وكلمّ موسى ربه سبحانه ، زاغوا عن الحق ، وهددوا موسى بأنهم لن يؤمنوا له حتى يروا الله عياناً علانية ، وذلك ما عبروا عنه بقولهم : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فإنك قد كلمته فأرناه) ولما نطقوا بكلمة السوء هذه ، أخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ جزاء ظلمهم ، وما أكثر ما كانوا يظلمون ، فقام موسى يبكي ويدعو الله تبارك وتعالى .

والآية الكريمة التي أعنيها هي قول الله جل ثناؤه : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾ .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن صدور ما صدر عن هؤلاء الذين اختارهم موسى ، أمر يستوقف الناقد البصير، لأنه اختارهم على عينه للقيام بالاعتذار، إذ دلالة ذلك ، أن الأخيار من بني إسرائيل ، كان عندهم هذا الاستعداد

للزيغ الذي يتنافى مع أبسط قضايا الإيمان ، وهذا واضح فيما نقل الطبري عن السدي رحمهما الله . يؤكد هذه الرواية ، ما روى شيخ المفسرين أيضاً عن محمد بن إسحق أن موسى عليه السلام ، سلك في طريقة الانتقاء ، أن اختار السبعين الخيِّر فالخيِّر ، قال محمد بن إسحاق . (اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيِّر فالخيِّر وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا مما صنعتم ، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى طور سيْناء ، لميقات وقته له ربه . وكان لايأتيه إلا بإذن منه وعلم . فقال السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ! فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام ، حتى تغشّى الجبَل كلّه ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا في الغمام ، وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعل ولا تفعل !! فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام ، فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة — وهي الصاعقة — فافتُلتت أرواحهم ، فماتوا جميعا ، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ، ويقول : لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، قد سفهوا ، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل) .

هذا : ويبدو أن تعميق حسِّ المسلمين بما جبل عليه اليهود من انحراف ، وتطلعٍ إلى كل ما هو زيغ وعدوان على مقتضيات الإيمان، كان لابد له من تعدد المواطن التي تذكر فيها هذه الحقيقة ، على الأسلوب المعجز الذي

اقتضته حكمة الله ، فلم يقتصر في الحديث عما نطقت به أفواه القوم من كلمة الضلال : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ خطاباً لموسى ، على القرآن المكي ، ولكن جاء ذلك أيضاً في القرآن المدني ، حيث المسلمون على خط المواجهة مع اليهود الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم الشعب المختار قرباً إلى الله من بين الشعوب.

فما رأيناه مجملاً في أمر الكلمة المشار إليها ، والتي خرجت من أفواههم تهديداً لموسى عليه السلام ، وكشفت عن دخيلة نفوسهم ، نرى النص عليه مفصلاً في سورتي البقرة والنساء ، مع ما يرى من تفصيل في سورة الأعراف لواقعتي الاختيار ودعاء موسى عليه السلام .

يتضح ذلك بما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه : ﴿ **وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ .

ومعنى الآية - كما نرى - واذكروا إذ قلتم ياموسى لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به ، حتى نرى الله جهرة - عياناً علانية برفع الساتر بيننا وبينه ، وكشف الغطاء دوننا ودونه ، حتى ننظر إليه بأبصارنا - فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ﴿**حتى نرى الله جهرة**﴾ قال : علانية ، وروي عن الربيع وقتادة : ﴿ **حتى نرى الله جهرة** ﴾ عياناً . وعن ابن زيد : ﴿ **حتى نرى الله جهرة** ﴾ حتى يطلع إلينا .

ونقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء قول الله تعالى : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً**

مبيناً﴾ .

لقد كان من تعنت اليهود : أن سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء ، آية معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها شاهدة له عليه الصلاة والسلام بالصدق ، آمرة لهم باتباعه . وفيما ورد عن السدي ومحمد بن كعب القرظي ، ما يرجح أن هذا هو سبب نزول الآية ، ورأى الطبري أنه أولى الأقوال بالصواب ، وتابعه على ذلك كثيرون .

هكذا سأل اليهود محمداً ﷺ ما سألوه تعنتاً ، وفراراً من الإيمان به ، فجاء التوبيخ والتقريع من الله عز وجل لهم في مسألتهم إياه ذلك ، وحملت الكلمة القرآنية تسلية النبي ﷺ عن صنيعهم في عصره ، بفعل أسلافهم وأجدادهم القدماء . ﴿**يسألك أهل الكتاب بأن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة**﴾ .

فلئن سألك هؤلاء أن تنزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء ، كي يصدقوك .. فإنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بذلك ، ولسوف يخالفون أمر الله كما خالفه أسلافهم بعد كل ما رأوا من الآيات ؛ فقد سأل أسلاف هؤلاء اليهود وأوائلهم ، موسى عليه السلام أعظم مما سألوك ، من تنزيل كتاب عليهم من السماء ، فقالوا له : أرنا الله جهرة أي عيانا نُعاينهُ وننظر إليه .

وهكذا جاء التصريح بقصتهم مع موسى عليه السلام وقولهم : أرنا الله جهرة ، لكيلا يكون تعنت اليهود في عصره عليه الصلاة والسلام ، أمراً مستهجناً عنده ، ولا مدعاة للأسى ؛ فذلك ديدن الأجداد قبل الأحفاد ، بل إن الأسلاف قد سألوا موسى أكبر مما سأل هؤلاء اليهود المعاصرون . **والتسلية عن صنيع الأحفاد بما صنع أسلافهم من قرون وقرون ، لها دلالتها في توعية المسلمين اليوم ، وتنبيههم على حقيقة هؤلاء الناس المعاصر منهم ومن**

تدحرج في التـاريخ قبل قرون وقـرون ، لكيلا تشتبه عليهم الأمـور ، ويلبس الحق بالباطل ؛ فاليهود هم اليهود ، وأعداء الأمس هم أعداء اليوم . وبواعث الحقـد والرغبـة في الأذى دائماً في ازديـاد . يعينهم على ذلـك اهتـزاز وجودنـا الذاتي ، ورفدهم بمعاونة آخرين وآخرين !! .

اللهم ارزقنا عميق التدبر ، وصادق الاعتبار .. فما أشبه الليلة بالبارحة !!

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

ـ ١ ـ

من وقائع السلوك المنحرف عند اليهود والتي عرض لها القرآن المكي ـ كما أشرت سابقاً ـ ليكون المسلمون ـ والله أعلم ـ على وضوح في الرؤية ـ وهم يحملون دعوة الله ويصارعون الوثنية والطغيان ـ من هذه الوقائع : ما حصل من أولئك الذين اختارهم موسى على عينه ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ كي يدعوا الله ويتوبوا إليه مما حصل من عبادة العجل ؛ إذ قالوا بعد أن سمعوا كلام الله وهو يأمر موسى وينهاه : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بصنيعهم هذا .

وأعقب ذلك أن قام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم .

والسورة المكية التي عرضت لهذه الواقعة هي سورة الأعراف إذ نقرأ في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين** ﴾ .

وما جاء في دعاء موسى من قوله : إن هي إلا فتنتك : أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ، وقد روي هذا التفسير عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي العالية وربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف .

قال الحافظ ابن كثير : ولا معنى له غير ذلك ، يقول إن الأمر إلا أمرك ، وإن الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء ، وتهدي من تشاء ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

ولئن كانت هذه الآية المكية ، لم تصرح بما اجترحوه ـ من قولهم : أرنا الله جهرة ـ واقتصرت على ذكر أن الرجفة أخذتهم ، إن التصريح بذلك جاء في القرآن المدني ـ ولله الحكمة البالغة في الإجمال هنا والتفصيل هناك . ذلكم ما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جلت حكمته خطابًا لليهود : ﴿ **وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ .

ويرد هذا التصريح في سورة النساء أيضاً ، حيث نقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً** ﴾ .

وأنت واجد أن الله تبارك وتعالى ، قد شاء بحكمته أن ينبه المسلمين منذ العهد المكي ، على أن الهالة التي أحاط بها اليهود أنفسهم ، من كونهم أكثر الناس فهماً وإدراكاً ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، والمنتفعون برسالة السماء ـ كما كان يشاع في جزيرة العرب ـ كل أولئك لا يرقى بهم إلى أن يكونوا في منزلة الرضا عند الله عزوجل ، لما أنهم ظلموا ، وطغوا وبغوا ، وناصبوا رسل الله العداء ، وكانوا على الخط العدواني في مواجهة الحق أبداً ، بل انحطوا بسبب انحرافاتهم ، إلى أن يكونوا في الدرك الأسفل من غضب الله وعقابه

فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين .

أما المؤهلون لمنزلة الرضا عند الله عـز وجل والمكانة السامية في العالمين : فهم المسلمـون الذيـن يسلمون وجـوههم لله على المنهـج الأوفى ، فيتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولا يحيدون ولا يظلمون ، حيث تكـون فعالهم صـورة صادقة لـدعاواهـم وأقوالهم على سـاحة الإيمان والعمـل والجهـاد ، لا كما فعل اليهـود إذ كـانـوا على تناقـض صـارخ ، بين دعواهـم الإيمان ، وبين سلوكهم المخـزي في الماضي والحاضر ، كما كشفت عن ذلك آيات الكتاب الكريم ، ونصـوص السنة النبوية المطهرة . يصحب ذلك الواقع الذي لا يبخل بالشهادة والتأييد .

إنها قضيـة كبرى ، يوجـه القرآن الكـريـم منذ العهـد المكي إلى تبيُّنهـا ، وإدراك أبعادها على طـريق الدعوة الميمـونة المنهج والهدف .. الدعـوة التي يراد لها أن تنتصر ، وأن تتجاوز حدود الجزيرة إلى الناس جميعاً .. نعم.. يوجه إليها القـرآن الكريـم من أول الطـريق لأن اليهـود هم اليهـود ، وإن كانـت المعـركة لم تظهـر مـلامحها الكـاملة إلا بعـد الهجـرة ، وهذا التبكير في تنبيـه المسلمين وهم ما يزالون فئة قليلـة مستضعفة في مكة ، لا ريب في دلالته على أن هذا الكتاب العزيز من عند الله .

ها هي سـورة الأعراف المكية ، تضع أيدينـا على القضية المشار إليها ـ على صورة بـالغة الدقة والـوضوح . وقد جـاء ذلك في أعقاب دعاء مـوسى عليه السـلام الذي دعـا به منـاجياً مـولاه بعد أن أخـذت الصاعقـة أولئك الذين اختارهـم لميقات ربه سبحانه . والآيات في ذلـك هي قول الله تعالى : **﴿واختار موسى قـومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الـرجفة قال رب لو شئـت أهلكتهم مـن قبلُ وإيـاي أتهلكنـا بما فعل السفهـاء منا إن هـي إلا**

فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة إنا هدنا إليك ، قال : عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السمٰوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

أما بعد : أليس في عرض القضية المشار إليها على هذه الصورة الجلية في العهد المكي ــ والمسلمون قلّة مستضعفون ــ ما يوجب على هذه الأمة أن تكون على المحجة ، وعياً لها وإدراكاً لأبعاد ذلك ، والعمل بمقتضاه ؟ أجل لابد من ذلك ، كيما تسقط الأقنعة ، وتظهر الحقيقة جلية ، لا يتغشاها المكر المبّطن ، والتمويه الزائف على ساحة الصراع مع من حلت عليهم اللعنة وباؤوا بغضب على غضب، فاليهود السابقون واليهود اللاحقون سواء، وليس ثمة مفارقة بين هؤلاء وأولئك إلا في اختلاف أحقاب الزمان .

وهنالك يمكن بعون الله تجاوز واعٍ قوي للواقع الأليم ، إلى واقع يحمل الخير والعزة الإيمانية والتمكين ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

ـ ٢ ـ

أشرت من قريب إشارة سريعة إلى قضيــة كبرى وجّه إلى الانتفاع بدلالتها وإدراك أبعادها القرآن الكريم في العهد المكي ، تلك القضية هي أن منزلة الرضا عند الله عز وجل ، والمكانة القائمة على الحق في العالمين ، هي لأولئك الـذين يتبعـون النبـي محمـداً عليه الصـلاة والسـلام ، يعـزرونه وينصرونـه ويستقيمـون على المنهج الـذي سلكـه بهم ، فتراهـم في سلوكهـم على كـل صعيد ، صـورة حية صادقـة لما آمنوا بـه وأعطوا المواثيق مـن أنفسهم على العمل بمقتضـاه .. وهذا ما يجعلهـم أهلاً لـرحمته وعطائه . ومـا داموا على تلك الاستقامة ، فلهم الخير والعزة والتمكين .

أما أولئك اليهود ، الـذين يشهد سلوكهم أبداً بـالتناقض الصارخ بين دعواهم الإيمان بـرسالة السماء ، وبين أعمالهم وتصرفاتهم على كـل صعيد : فليسوا من ذلك في شيء ، بل باؤوا بانحرافهم وظلمهم بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين .

ولقد جـاءت هذه الحقيقـة ـ والله أعلم — لتبيِّن مـن هم أهـل لرحمة الله ومرضـاته ، ولتنفي مزاعـم اليهود التي كانـوا يشيعونها في جزيرة العـرب من كونهم أكثر الناس فهماً وثقافة ، وإدراكاً ، وأنهم المنتفعون حقاً ـ لاسواهم ـ من الدين والكتاب المنزل من عند الله . وكـم تعالوا وتغطرسوا وكان منهم الصلف واحتقار الآخرين بسبب أنهم ـ على حد زعمهم ـ أبناء الله وأحباؤه.

وموطن الكشف عن هذه القضيــة الكبرى ، والتي يبدو إدراكها من قبل

المسلمين ، ذا أهمية بالغة في الإسهام بتغيير الواقع ، ما ورد في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ في آيات كريمات أتينا على ذكرها في صفحات سبقت ، وما بد من العودة إليها الآن تجلية للقضية من خلالها إن شاء الله . وتلك الآيات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المشار إليها : ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ، قال : عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحلّ لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

ثم قال جل شأنه خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وللأمة من ورائه في بيان لعموم رسالته ووجوب الإيمان به ، وأن ذلكم هو طريق الفلاح: ﴿قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلاهو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعكم تهتدون ﴾ .

هكذا نرى في هذه الآيات أنه بعد دعاء موسى عليه السلام بقوله : أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنافي هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك : تبنا ورجعنا ، يأتي قول الله تبارك وتعالى : ﴿قال

عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الآيات .

فرحمة الله الرحيم الرحمن ، وسعت كل شيء ، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة) ولم يرض رسول الله ﷺ من ذلك الأعرابي ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ ما دعا به من قوله : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً فقال له عليه الصلاة والسلام : « لقد تحجرت واسعاً » .

ولكن الله تعالى ، بعد أن أثبت هذه الحقيقة ، حقيقة أن رحمته وسعت كل شيء ، أبان سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم الخبير ـ أنه سيكتبها منّة منه وإحساناً لأولئك الذين يتصفون بصفات معينة ، مدارها على الإيمان وصدق الاتباع ـ قولاً وعملاً وسلوكاً ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام فيما جاء به من رسالة الإسلام وحياً من الله عز وجل ولأتباعه الصادقين . وهذا واضح في قوله جل وعلا : « فسأكتبها » والضمير يعود للرحمة . والصفات التي ذكرت تدل دلالة واضحة على هذا الذي ذكرنا ، من أن المقصود أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فأنت ترى **﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾** إنهم يتقون الشرك والعظائم من الذنوب ويأخذون أنفسهم بتقوى الله تعالى ، ويؤتون الزكاة فيزكون أنفسهم وأموالهم ، وتراهم في كل حركة من حركاتهم في هذه الحياة مصدقين بما جاء من عند الله .

ثم جاء التفصيل بعد هذا الإجمال ، فأوضحت الآية الثالثة ، أن عماد

القضية الإسلام واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاء وصفه بالأمية ، ليكون آكـد في بيان أنه محمـد بن عبدالله صلـوات الله وسلامه عليـه ، فقال تعالى : ﴿**الذين يتبعون الرسول النبي الأمـي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيـل يأمرهـم بالمعروف وينهـاهم عن المنكـر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبـائث ويضع عنهـم إصرهم والأغلال التـي كانـت عليهم فالـذين آمنـوا به وعـزروه ونصروه واتبعوا النـور الذي أنـزل معه أولئـك هم المفلحون**﴾.

أرأيت : بعد الكشف في الآيات السابقـات غير مرة عن صنيع اليهود في تطلعهم الدائم إلى الوثنية بل وقوعهم في عبادة غير الله ، واحتيالهم الدائب على أحكام الله ، يحاولـون التفلت منها والعبث بمـدلولاتها ، بعد هـذا كله نقع على هذه المقولة العظمى التي تضع حـداً ـ على صعيد الفكر والمعرفة ـ لغطرسـة أولئك المدَّعين الـذين يخالـف سلوكهـم دعاواهـم العريضـة كل المخالفة ، فعذاب الله يصيب به من يشـاء . أما رحمته : فهي لأولئك الذين يتبعون الرسول النبـي الأمي ، فيعملون بمقتضى الرسالـة التي بلغها للناس وتراهـم لا يتراجعون عن ميـدان من الميادين ، فيـه نصرة هذا النبي الكـريم وشـد أزره ، نصرة للحـق وطلباً لمرضـاة الله ومـرضـاة رسـوله عليـه الصـلاة والسلام .

وما على المسلمين اليوم ـ وقد تداعى عليهم الأعداء في الداخل والخارج ـ إلا أن يستأنفوا طريـق الوصول إلى تمثل تلك الحقيقة إيمانـاً وعملاً وسلوكاً ، موقنين بنصر الله إن هم نصروه . ولله عاقبة الأمور .

أقيموا اليهودي عن أخيكم

مما وقفتنا عليه سورة الأعراف في أعقاب آيات تحدثت عن بني إسرائيل ، أنه بعد أن أخذت الرجفة أولئك الذين اختارهم موسى عليه السلام لطلب المغفرة من الله ، والعفو عما بدر من عبادة العجل ، وقف موسى يدعو ربه قائلاً : ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ .

وتطلع علينا مقولة مباركة تضع الأيدي على حقيقة ناصعة في شأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فعذاب الله يصيب به من يشاء ، ولكن رحمته سيكتبها لأولئك الذين يؤمنون بآيات الله ، وتزين سلوكهم تقوى الله ، أولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام ، الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويسير بهم إلى حيث السعادة في الدنيا والآخرة ، فيحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وذلك أثر من آثار رحمة الله التي كتبها لهم ، أما العاقبة الموعودة من الله ــ والله لا يخلف وعده ــ لأولئك الذين آمنوا بذلك الرسول وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه : فهي الفلاح في الدنيا ويوم الدين ؛ فهم المفلحون أبداً ما داموا على تلك الطريق ، إيماناً ونصرة لما جاء به النبي عليه صلوات الله وسلامه عليه ، يدل على ذلك ما جاء بعد قول الله تباركت أسماؤه على لسان

موسى عليه السلام : ﴿ **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ قوله جل شأنه : ﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ .

أرأيت إلى هذا الوضوح فيما خصت به أمة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾.

أخرج الطبري في تفسيره « جامع البيان عن تأويل آي القرآن» عن نوف الحميري أنه قال : لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله لموسى : أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً ، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم ، يقرؤها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير . فقال موسى لقومه : إن الله قد جعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً . قالوا : لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ! قال : ويجعل السكينة معكم في بيوتكم . قالوا : لا نريد إلا أن تكون كما كانت في التابوت ! قال : ويجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم ، ويقرؤها الرجل منكم والمرأة ، والحر والعبد ، والصغير والكبير قالوا : لانريد أن نقرأها إلا نظراً ! فقال : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون**

الزكاة .. ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ .

ولقد كانت الآيات التي نحن بصددها ـ شأن القرآن كله — محط أنظار المؤتمنين على فهم الكتاب الكريم ونقل دلالاته إلى المسلمين ، فأدركوا من خلالها ، ما خص الله به هذه الأمة ، وما تحمل رسالتها من حقوق وواجبات، الأمر الذي ينبه المسلمين أبداً ، أن يكونوا على طريق المعرفة والعمل والجهاد وأن لا يقعوا فيما وقعت فيه يهود من المخالفة والجحود ، وبذلك يسلم لهم على الدوام ما فضلهم الله به على غيرهم ، ويثبتون قولاً وعملاً ، أنهم ما يزالون جديرين بذلك ، والفضل لله سبحانه أولاً وآخراً ، وجزى الله رسولنا النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام خير الجزاء وأعلى مقامه في الآخرين.

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** أنه قال : أمة محمد ﷺ . وروى الطبري مثل ذلك عن سعيد بن جبير والسدي الذي قال: هؤلاء أمة محمد ﷺ .

وفي بيان المراد بالنبي الأمي في قوله تعالى : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأنه محمد عليه الصلاة والسلام قال قتادة: **﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾** تمنتها اليهود والنصارى ، فأنزل الله شرطاً بيناً وثيقاً فقال : **﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾** وهو نبيكم ﷺ ، كان أمياً لا يكتب . أجل : إنه الشرط البين الوثيق . من هنا قال شيخ المفسرين أبو جعفر عليه رحمة الله : وهذا القول إبانة من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبيه عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله **﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾** هم أمة محمد

ﷺ ، لأنه لا يُعلم لله رسول وصف بهذه الصفة ـ أعني الأمي ـ غير نبينا محمد ﷺ وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل .

هذا : والنبي الأمي المقصود في الآية ، جاء ذكره وبيان أوصافه والبشارة به في التوراة والإنجيل ، وجاءت الآية الكريمة صريحة بذلك فقال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوارة والإنجيل** ﴾ والقوم بعامة ، وأحبارهم والرهبانيون فيهم بخاصة ، يعلمون ذلك حق العلم، ولكنهم يجحدون بغياً على الحق، وحسداً من عند أنفسهم .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا إسماعيل عن الحريري عن أبي صخر العُقيلي أنه قال : حدثني رجل من الأعراب قال : « جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت : لألقين هذا الرجل ، فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشرٍ التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها . فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوارة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟ فقال برأسه هكذا ، أي لا !! ، فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أقيموا اليهودي عن أخيكم ، ثم تولى كفنه والصلاة عليه » قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس .

سبحان الله !! ناشد الرسول ﷺ اليهودي الأب بالله ، فكذب زاعماً أنه لا يجد في التوراة صفة رسول الله ومخرجه ، وأشرق في قلب اليهودي الابن المريض نور الهداية ، فصدق في بيان الحقيقة ، ونطق بالشهادتين ، وبذلك

أصبح أخاً للمسلمين ، وعندما فاضت روحه إلى بارئها ، أمر رسول الله ﷺ بتنحية أبيه الكافر عنه « أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم »

« أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم » وعاها التاريخ ، وأصبحت ـ بدلالتها وأبعادها ـ أمانة في أعناق المسلمين .

ألا ليت لهواة التحوُّل عن هذا النبع السلسبيل ، عيوناً ترى وقلوباً تعي . وهنيئاً لذلك الشاب ما أكرمه الله به من الصدق والنطق بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله » حتى أصبح أخاً للمسلمين . هنيئاً له هذا الفضل العظيم ، بأن يأمر سيد العالمين بإزاحة أبيه اليهوديِّ الكافر عنه ، لأن النسب الحقيقي ، قد تبدل بين الأب الذي ظلَّ على يهوديته ، وبين الابن الذي أكرمه الله بالإسلام .

وما أعظمه درساً ، أن يتولى الرسول صلوات الله وسلامه عليه كفنه والصلاة عليه بعد أن انضم إلى قافلة الهدى والخير ، وأصبح في عداد من يكتب الله لهم الرحمة إن شاء الله . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى .

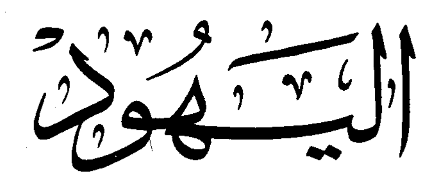
الفهرس

الموضوع	الصفحة

****

سيصدر قريبًا إن شاء الله

القسم الثاني من كتاب :



في القرآن والسُّنَّة

" بعض من خلائقهم "